الباب الثالث

استقلال الحسن الصباح عن الفاطميين

١ — الدعوة لنزار بعد المستنصر

دلت تصرفات الحسن الصباح جميعها على أنه كان ينزع إلى الاستقلال ، ويعمل على تكوين جماعة إسماعيلية فى خراسان وفارس ، تختلف فى تكوينها وتنظيمها عن جماعة الإسماعيلية قبل ذلك ، فلم يشأ أن يقرّ بالزعامة المصريين بعد وفاة الخليفة المستنصر ، ولم يشأ أن يعيش هو وجماعته وسط العالم السنى الذى يضمر لهم الحقد ، ويتمنى لهم الفناء . ومن ثم سن سنة جديدة ، يرمى من ورائها إلى قلب العروش وسفك الدماء ، سنية كانت أو شيعية ، فى سبيل تكوين ملك دائم له ولخلفائه من بعده . وكان يسعى سعيا حثيثا إلى «إسقاط الخلافة العباسية وإقامة دولة إسماعيلية على أنقاضها»[١] ، ومن ثم أصبح المذهب الإسماعيلى فى بلاد المشرق آلة فتاكة للانتقام وسفك الدماء [٢] ، ومع هذا كله لم ينادِ الحسن بنفسه إماما أو ملكا أو خليفة ، بل كان يعتبر نفسه «حجة» للإمامة الإسماعيلية ، الظاهرة حينا والمستورة حينا آخر [٣] .

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins. 82

(٢) Menant ; Khodjas in Guzerat (R.M.M., vol xii), p.217

(٣) الامامة الظاهرة، إمامة المستنصر، والإمامة المستورة، إمامة نزار وأبنائه من بعده

ظل الحسن على ولائه للمستنصر طول حكمه ، فلما مات هذا الخليفة فى سنة ٤٨٧ هـ انتقض هو وأتباعه على إمامة ابنه المستعلى وخلافته (٤٨٧ ٤٩٥هـ) ، ونادوا بإمامة نزار ، الابن الأكبر للمستنصر . وليس من شك فى أن الحسن كان يمهد الأمور فى فارس وخراسان للإمام نزار ، فجعل أنصاره يعتقدون أن نزارا هو الإمام الحق ، وأن المستعلى اغتصب منه العرش والإمامة معا . ومنذ اليوم الذى انتقض فيه الحسن على أنصار الدعوة الفاطمية فى مصر ، عرف أنصاره باسم النزارية ، كما عرف أنصار المستعلى باسم المستعلية ، الأمر الذى حدا ببعض إلى الاعتقاد بأن الحسن إنما كان يسعى إلى تكوين ملك له هو ، دون سائر الخلفاء فى مصر .

يقول فون همر : إن الحسن حين حاول النجاح فى قصر السلطان ملكشاه ، وأخفق فى مسعاه ، تظاهر بالإخلاص والتفانى فى خدمة الخليفة الفاطمى فى القاهرة ـ المستنصر ـ ، وتستر بذلك الادعاء ، وبالتظاهر بالتقوى والورع ، وحاول أن يجذب الأشياع إليه باسم المستنصر . وفى الحق أن الحسن الصباح لم يكن يعمل لغير مصلحته ، ودون تحقيق آماله الشخصية En rélalité, il ne travaillait qui pour lui, et dans l'intérêt de son ambition.

ونعتقد أن ما ذهب إليه فون همر ليس صحيحا فى جملته ، لأن الحسن الصباح لم يعمل شيئا تشتم منه الثورة على سيده المستنصر ، أما إن قصد فون همر أن الحسن ثار على المستعلى ، فهذا حق لا ريب فيه ، ونتفق مع فون همر حينئذ فى أن الحسن انتهز فرصة قيام النزاع بين

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 84

نزار وأخيه الخليفة المستعلى ، ثم ما كان من مقتل الأمير نزار فى القاهرة سنة ٤٨٨ هـ ، وخلق نظرية جديدة ، هى نظرية الإمام المستور والدعوة إليه (١) ، وبدعوته لنزار نجح نجاحا هائلا فى تكوين نظام جديد ، يتلخص فى أن دولة إسماعيلية ، صرفة خلقت وسط دولة السنيين (الدولة العباسية) .

والحق أن الحسن الصباح أدرك ضعف المذهب الإسماعيلى فى مصر فعمل على إدخال حيوية جديدة ، ودم فتى جديد ، بين إسماعيليته هو ، وأخذ يسعى فى تحقيق ذلك سرا فى عهد الخليفة المستنصر ، فلما مات هذا الإمام الإسماعيلى ، أماط اللثام عن نواياه ، وأعلن عن سياسته هذه ، متسترا بستار الدعوة إلى نزار . ومن ثم اشتهر أتباعه باسم الحسنية ، نسبة إليه ، أو النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر ، أو أصحاب ، الدعوة الجديدة ، التى ابتدعها الحسن ليتميزوا بها عن إخوانهم الإسماعيلية الغربيين The Western Ismailis (المستعلية ثم الطيبية) (٢)

وهكذا كان الحسن الصباح يعتقد أنه يستطيع تحقيق آمال عبد الله بن ميمون القداح ، الذى كان حجة محمد بن اسماعيل ، ودعامة المذهب الإسماعيلى ، فى تكوين دولة إسماعيلية فى كل شىء ، بحيث يكون الرعايا والحكام على

---

(١) نعم ! هى نظرية جديدة على إسماعيلية ذلك الزمان ، فقد ألف هؤلاء الدعوة لإمام ظاهر ، ومنذ قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ ، وهم يؤمنون بالإمامة الظاهرة لا المستورة . ولكنها نظرية غير جديدة على الإسماعيلية فى العصور الأولى حيث عصر الستر الأول ، الذى بدأ باستتار محمد بن إسماعيل فى عهد الرشيد العباسى ، وانتهى بقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) نسبة إلى الامام الطيب بن الخليفة الآمر .

عقيدة واحدة ؛ فإنه على الرغم من نجاح القرامطة ، فترة من الزمن ، فى تحقيق ذلك ، إلا أنهم أخفقوا فى تكوين دولة إسماعيلية لهما ودما . وعلى الرغم من قيام الدولة الفاطمية التى هى الثمرة الأولى للمذهب الإسماعيلى ، فإنها هرمت قبل أوانها أو كادت ، لاعتمادها فى سياستها وجيشها على أيد غير إسماعيلية . وعلى الرغم أيضا من نجاح الدعاة الإسماعيلية فى اليمن والهند ، وفى كل مكان فى العالم الإسلامى ، على الرغم من هذا كله ، رأى الحسن الصباح أنه إذا ما استطاع أن يكون دولة إسماعيلية بحتة ، أمكنه أن يرث الفاطميين ويهدم دولة العباسيين [١] .

وقد تركزت جهود الحسن بعد موت المستنصر فى نشر الدعوة لنزار ، أو بالأحرى فى نشر « الدعوة الجديدة » . وكان عليه أن يحتفظ بالأنصار القدامى من الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، ويجعلهم يلتفون حوله ، وكان عليه كذلك أن يضم إلى صفوفه عناصر جديدة . وعلى الرغم من أن الحسن الصباح كان عالما مبرزا ، فإنه لم يعمل كغيره من الدعاة والعلماء على جذب الطوائف المثقفة ، بل كان يلجأ إلى العامة ، حتى يسهل عليه وعلى دعاته التأثير فيهم ؛ خصوصا وأنه كان يأتيهم من ناحية عاطفية بحتة ، فيصور على بن أبى طالب وأبناءه تصويرا محزنا يصل إلى سويداء القلوب ، يقول الذهبى : [٢] « وكان لا يدعو إلا غبيا ، ثم يذكر له ما تم على أهل البيت من الظلم ، ثم يقول له : إذا كانت

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 84

(٢) تاريخ الاسلام ، ج ٣ ورقة ٤٧٨ (مخطوط)

الأزارقة (١) سمحوا بنفوسهم فى القتال مع بنى أمية ، فما سبب تخلفك بنفسك عن إمامك ؟ فيتركه بهذه المقالة طعمة للسباع ».

ويذهب ديفريمرى Defremery مذهبا غريبا فى وصف عقيدة الحسن الصباح ، التى كان يدعو إليها ، ويرى أن انتشار الإلحاد الذى اشتهر به النزارية ، إنما يرجع إلى الحسن وحده . ويؤكد دعواه هذه بقوله : إن الحسن لما قويت شوكته بامتلاك آلموت ، أخذ يرسل دعاته تباعا فى الأقاليم المختلفة ، لنشر مبادئه الإلحادية ، وبخاصة بين سكان الجبال الجاهلين ، وبهذه الطريقة انتشر الإلحاد بين النزارية (٢) .

ونعتقد أن ما ذهب ديفريمرى إليه ليس صحيحا فى جملته ، وأن تسميته « الدعوة النزارية بالدعوة الجديدة » إنما قصد بها تمييز هؤلاء النزارية عن المستعلية ، وتمييز دعوتهم عن دعوة الفاطميين ، أو الدعوة القديمة التى تمثلت بعد المستنصر فى المستعلية ... فلم تأت هذه الدعوة النزارية بمذهب جديد ، أو آراء ومبادىء جديدة ، وآية ذلك أن الشهرستانى ، وقد اطلع على مبادئهم جميعها ، لم يستطع أن يفرق بينها وبين مبادىء المذهب الإسماعيلى عامة ، وأن عطا ملك الجوينى ، وزير هولاكو ، وقد اطلع على كتب النزارية ، الدينية وغير الدينية ، بعد سقوط آلموت فى يد هولاكو ، يقرر أن مذهب الحسن الصباح لا يختلف فى شىء عن مذهب الفاطميين الإسماعيلية بمصر (٣) .

---

(١) طائفة من طوائف الخوارج

(٢) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaéleens, p. 69

(٣) Menant ; Khodjas in Guzerat (R.M.M.) vol. xii, p. 217

من هذا نرى أن تسمية الدعوة النزارية بالدعوة الجديدة ، لا تمت إلى الإلحاد بصلة . وبخاصة فى عهد الحسن الصباح . لأن الإلحاد لم ينتشر رسميا وبصورة واضحة بين النزارية إلا فى عهد الرئيس النزارى الرابع ، الحسن الثانى (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) . أضف إلى ذلك أن الحسن الصباح كان متقشفا تقشفا جعله يقسو على رعيته وأبنائه ، فقد طرد من قلعته رجلا كان يتعشق الموسيقى . مما يدل على عدم انتشار الإلحاد فى عهده ، ويدل على بطلان ما ذهب ديفريمرى إليه .

ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن إلى نزار ، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحته ، تستقر فى أماكن قوية التحصين ، ويجتمع فيها جميع « حدود » الدعوة النزاريه ، من المستجيب حتى الرئيس ، ويعمل الجميع على أن يضموا إلى صفوفهم أكبر عدد مستطاع ممن يجاورونهم من السنيين ، وأن يزيدوا فى ممتلكاتهم كلما تزايد عدد أتباعهم ، فأصبح للحسن الصباح ، تبعا لذلك ، عشرات ، بل مئات من القلاع والحصون القوية ، فى أقاليم رودبار (١) وقوهستان (٢) ، والطالقان (٣) وغيرها .

على أن الحسن الصباح ، لم يكتف بالجهات الشرقية من المملكة الإسلامية ، بل وجه دعاته نحو بلاد الشام ، فنشروا الدعوة النزارية الجديدة هناك ، وحاربوا السلاجقة والمستعلية والصليبيين فى تلك البلاد ،

---

(١) رودبار : بطبرستان ، تتوسطها قلعة آلموت ، قاعدة النزارية الرئيسية .

(٢) قوهستان : بخوزستان ، ومن أشهر قلاعها « شاه دز » بالقرب من أصفهان

(٣) الطالقان : بلدة بخراسان بين مرو الروز وبلخ . وقيل : هى مدينة من أكبر المدن فى طخارستان . وقيل أيضا : هى كورة بين قزوين وأبهر وهو الصحيح .

وبهذا أصبح للحسن فى كل إقليم أتباع ، وفى كل مدينة أنصار ، فلا يكاد يخلو منزل في الكثير من المدن من أتباع له وأشياع .

ومن أهم ما يميز دعوة الحسن فى ذلك الحين استغلاله مبدأ التعليم من الإمام المعصوم . حقيقة ! كانت عامة الفرق الشيعية تعتنق هذا المبدأ ، غير أن الحسن الصباح أراد أن يقوى نفسه عن طريقه ، فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئا عن غير طريق الإمام أو نائبه ، وغرضه من تلك الدعوى أن يقيم حوله الأشياع ، لأنه نائب الإمام ومصدر العرفان . وبهذا نرى أن الدافع الذى دفع الحسن إلى اعتناق هذا المبدأ دافع سياسى محض .

وكان مبدأ التعليم من العوامل التى شجعت الحسن على حمل السيف فى وجه الدول السنية القائمة . لأنه التجأ إلى مبدأ إسماعيلى آخر زاد من حنق السنيين عليه ، واشتهر به الإسماعيلية جميعا ، وهو التأويل ، فأول القرآن للنزارية تأويلا يتفق ونزعاته السياسية ، فاعتقد الدعاة تبعا لذلك أحقيته فى تعيينهم ، واعتنق المستجيبون تقديسه ، حيث أوهمهم أن به جزءا إلهيا حل فيه من الإمام . وبهذا التقديس ، وتلك الثقة ، نجح الحسن فى خلق شعب يدين بالطاعة له .

وقد أوضح تايلور (١) أثر مبدأ التأويل فى جماعة النزارية بقوله : « إن الحسن أخبر أشياعه أنه نائب الإمام المستور ، ولذلك فإنه - جزئيا - عبارة عن حلول الألوهية . وقد اعتقد أتباعه أن السعادة والشقاء فى إيمانه . وهم يرون أنهم لا يعملون أية معصية فى حياتهم ، لأن المعصية

---

(١) Hist. of Mohammedanism and Its Sects. p. 216

فى عصيان أوامره هو » .

ويعترض الغزالى على عقيدة أتباع الحسن فى التعليم من الإمام المعصوم ، ويناشدهم أن يبرهنوا له على وجود هذا الإمام المستور ، فيقول : « والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئا أصلا ، كالمتضمخ[1] بالنجاسة يتعب فى طلب الماء ، حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقى متضمخا بالجنائب[2] » .

ولما كان الحسن الصباح يريد من أتباعه الطاعة المطلقة ، فقد جعل عقيدة « الإمام المعصوم » دأبه ، ونادى بوجوب طاعته وطاعة نائبه « حجته » ، مدعيا أن ذلك هو الشرط الأساسى للدين الحق ، وبهذا تصرف الحسن فى عقول أشياعه ، وكان ذلك التصرف غايته التى يسعى إليها ، كما تمكن بذلك الادعاء من التخلص من سلطان الفاطميين الإسماعيلية بمصر ، وكان هذا التخلص أيضا غرضا أساسيا من أغراضه التى سعى إليها .

وقد بلغ من خطورة الحسن فى تلك الناحية العلمية أن عينت الدولة العباسية السنية كثيرا من العلماء للرد عليه وعلى أتباعه ، فهذا الغزالى ينشر كتابه المستظهرى[3] أو فضائح الباطنية ، ليرد به على النزارية نظريتهم فى الإمام المعصوم ، والمعلم المعصوم ، وترى كتابه « القسطاس المستقيم » عبارة عن نقاش دار بينه وبين أحد أتباع الحسن الصباح ، ممن يؤمن بنظرية التعليم . كما ترى مناقشات طريفة فى كتابه « المنقذ من الضلال » .

---

(١) المتضمخ : المتلطخ .

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١١٩ (طبعة دمشق)

(٣) نسبة إلى الخليفة المستظهر العباس . وقد نشره وعلق عليه العلامة جولدزيهر

ويقول ابن ميسر [١] : « وادعى (الحسن) أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم ، وفشا فى الملوك والرؤساء اغتياله إياهم ، وقتله لهم . واستدعى الإمام أبو حامد الغزالى إلى نيسابور ، فاستقر بالمدرسة ، وأخذ فى مناظرة أصحاب ابن الصباح ، وألف كتابه المستظهرى ، وأجاب عن مسائلهم » . ولا غرو فقد كان لنشاط الغزالى العلمى ، ضد الحسن الصباح وجماعته ، أثره فى إظهـــار حقيقة أمر النزارية للملأ . يقول الغزالى [٢] : « فهؤلاء جربناهم ، وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى مفحم » .

ويصور الغزالى فى نقاشه مع أحد أتباع الحسن الصباح ، إيمان النزارية فى عهد الحسن ، بمبدأ التعليم ، ومنه نرى اعتناقهم نظرية التعليم من الإمام الغائب أو المستور ، واعتقادهم بأنه يعلم الغيب ، ويطلع على كل ما يجرى فى العالم . كما نرى شيئاً آخر ، هو احتقار النزارية لآراء غيرهم ، ولو كان هذا الغير من كبار العلماء ، أنظر النزارى يسفه آراء الغزالى ، حجة الإسلام ، ولا يريد أن يضعها موضع الاعتبار ، ويناقشه فى حدة وعنف ، ثم يقطع حديثه معه بقوله : « فاطو طومار الهذيان » . وإذا كان النزارية يعتبرون آراء الغزالى هذيانا ، فما بالك بآراء غيره من السنيين [٣] !

---

(١) أخبار مصر ، جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص ١٢٠ .

(٣) انظر قسم الملاحق ، لترى النقاش الحاد الذى قام بين الغزالى وأحد نزارية الصباح

من هذا نرى أن الحسن الصباح قد نجح نجاحا منقطع النظير ، فى إقرار الأمور لنزار وأبنائه .

٢ — الحسن الصباح وتنظيم المجتمع النزارى

عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيما دقيقا ، يضمن لها البقاء الطويل ، فعمل على تغذيتها بالدماء الجديدة القوية ، وتقويتها بالمبادىء الطيبة ، كالسرية والطاعة وغيرهما . وكان أهم ما يمتاز به المجتمع النزارى الذى خلقه الحسن الصباح ، هو أنه أصبح وحدة قائمة بنفسها ، متماسكة تمام التماسك ، حتى كان المستجيب الجديد يشعر بما يشعر به خاصة القوم ، من وجوب التكالب على النهوض بتلك الجماعة ، ومن ثم قسم الحسن جماعته إلى مراتب ودرجات ، وضع فى كل مرتبة من يستطيع البقاء فيها . وجعل التواد والمحبة والأخوة « العامل المشترك » بين أعضاء الدرجات جميعها ، وجعل للأعضاء شروطا ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم ، كما جعل للدعوة الإسماعيلية حدوداً خاصة بها .

(١) التنظيم المادى ، أو الحدود الدينية عند النزارية :

كان تنظيم المجتمع النزارى ، الذى التف حول الحسن الصباح من أهم ما كان هذا الزعيم يهتم به ، فقد كان يعلم أن مجتمعا كمجتمعه ، الذى امتاز بالثورة على الجميع ، عباسيين كانوا أو فاطميين ، يجب أن يعيش فى أمان ، ويجب أن يسوده الإخاء ، حتى يستطيع أن يقف على قدميه أمام العداء المضطرد ، الذى كان يحيط بهم جميعا . ومن ثم عمل على تقسيم مجتمعه

هذا إلى مراتب ، أو بالأحرى إلى مدارس ، يتمتع بالبقاء فى كل منها جماعة لهم صفاتهم الخاصة ، وجعل أصحاب هذه المراتب جميعا يتجهون إلى هدف واحد ، هو تقديس إمامهم المستور ونائبه ، أى الحسن نفسه ، وجعل الأخوَّة أهم عناصر حياتهم .

ولم يشأ الحسن الصباح أن يجعل جميع أعضاء مجتمعه جنودا يحملون السلاح فى وجه الأعداء ، بل أوقف على حمل السلاح جماعة ممن اشتهروا بالقوة البدنية ، فجعل دأبهم تهديد الأعداء بخناجرهم المسمومة ، وهؤلاء هم الفداوية ، الذين يبذلون أنفسهم رخيصة فى سبيل إمامهم ونائبه . وبهذه الوسيلة استطاع بقية أعضاء مجتمعه ، أن يتوفروا على أعمالهم العمرانية ، زراعية كانت أو تجارية أو صناعية . على أنهم جميعا كانوا ، إن جد الجد ، وحزب الأمر ، يحملون السلاح ، للدفاع تارة ، والهجوم أخرى . وسنرى من استعراض مراتب الدعوة النزارية ، مدى نجاح الحسن فى تنظيم مجتمعه من هذه الناحية المادية ، التى تعتمد فى تصوير هذا النظام على جعل الحسن نفسه شخصية واقعية ، لها مكانتها فى عالم «الدعوة الجديدة» .

مراتب الدعوة النزارية ، أو تقسيم حدود الدعوة

المرتبة الأولى : مرتبة شيخ الجبل .

جعل الحسن الصباح مراتب دعوته المادية محصورة بين المستجيب العادى ، ونائب الإمام ، أى رئيس «الدعوة الجديدة» ، وجعل عددها سبعا .

وكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة Un Grand Maitre ولا غرو فقد أصبح هذا الزعيم الرأس المفكرة للدعوة الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، منذ عاد من مصر فى سنة ٤٧٢ م ، وباحتلاله قلعة «آلموت» فى سنة ٤٨٣ هـ . آلت إليه رياسة الإسماعيلية من الناحية العملية ، وبموت الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، ومناداته بإمامة نزار ، آلت إليه رياسة الدعوة الإسماعيلية بفارس وخراسان من الناحية الروحية أيضا ، فجمع فى يده ، منذ ذلك التاريخ ، رياســـة الدعوة بشقيها ، العملى والروحى ، فأصبح جديرا بأن يسمى «رئيس الدعوة الجديدة» . وكان مجتمعه الذى صاغه بيديه ، يحتوى على جميع مقومات الدولة ، ويتمتع هو بكل ما كان الملوك والسلاطين يتمتعون به من نفوذ ، ومع ذلك لم يلقب نفسه بلقب ملك أو سلطان .

ومن ألقاب الحسن ، باعتباره رئيس الدعوة النزارية ، لقب «مولانا» ولقب «سيدنا»[1] ، وهذان اللقبان إن دلا على شىء فإنما يدلان على مدى تقديس النزارية للحسن . ومما تجدر الإشارة إليه أن واحدا من خلفاء الحسن ، من الدعاة ، لم يلقب بلقب «السيد» ، أو «سيدنا» ، وإنما كان ذلك وقفا عليه وحده[2] .

(١) رأينا مثل ذلك اللقب عند القرامطة الشماليين خاصة ، أتباع زكرويه بن مهرويه ، الذين كانوا يلقبون رئيسهم بالسيد ، وأطلقوا على الداعى القرمطى ، القاسم بن أحمد ، لقب « نائب السيد » . كما رأينا النزارية يطلقون على كتاب سيرة الحسن الصباح اسم « ساراجوزاشت سيدنا » ، وينسبون إليه كتابا آخر ، يسمى « هفت باب بابا سيدنا »

(٢) Berchem : Epigraphie des Assassins des Syrie (J. A. 1897), p. 272.

على أن أكثر ألقاب الحسن شيوعا ، وبخاصة خارج نطاق جماعته ، لقب « شيخ الجبل » ، فقد انتشر هذا اللقب فى العالم الغربى خاصة ، حتى لقد أطلقه الصليبيون على مقدم الدعوة النزارية بالشام ، فعبروا عنه بشيخ الجبل [١] Vetus Montes . ونحن نعلم أن لقب « شيخ » يدل على الوقار والرياسة ، كما نعلم أن الحسن الصباح سن لأنصاره سنة الاستقرار فى قلاع قوية فوق قلل الجبال ، فأضحى خليقا بأن يسمى « شيخ الجبل » ، أى رئيس قلاعه [٢] .

وكذلك لما كانت رياسة الدعوة كلها فى يديه ، وأضحى تعيين الدعاة وعزلهم مقصورا عليه ، أطلق عليه بعض لقب « داعى الدعاة » ، غير أنه كان يتمتع بنفوذ يفوق نفوذ داعى دعاة الفاطميين ، فقد كان مركز داعى دعاة الفاطميين قليل الأهمية ، لا يزيد كثيرا عن مركز قاضى القضاة ، ويستمد نفوذه من رجال الحكومة ، وغالبيتهم من غير الإسماعيلية . أما الحسن الصباح ، فكان سلطانه لا يحد ، فلا يستمد السلطان من أحد ، بل كان يلقى أوامره فى آلموت ، فيتلقفها الإسماعيلية فى جبال لبنان ، وفى كافة أنحاء مملكته الشاسعة .

---

(١) الشيخ : يستخدم هذا اللفظ لرؤساء القبائل العربية ، ورؤساء الطوائف الدينية ، وبخاصة المتصوفين والدراويش . وقد انتشر اسم « شيخ الجبل » فى عامة آسيا ، وترجمه الأوربيون بكلمة عجوز الجبل The Old Man of the Mountain وهذا خطأ بالطبع ، لأن المقصود رئيس القوم وسيدهم ، لا عجوزهم ومسنهم .

(٢) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, pp. 89-90

ولا نشك فى أن الحسن الصباح كان يلقب نفسه فى عهد المستنصر بلقب « حجة الإمام » ، لأن هذا الخليفة جعله - كما رأينا - حجة على خراسان. كما لا نشك فى أن كثيرا من ألقاب التعظيم هذه ، إنما سمى بها بعد استقلاله عن مصر ، فقالوا فيه : مولانا ، وسيدنا ، ورئيس الدعوة ، وغير ذلك . وإن فى تلقيبه هذه الألقاب ، مايشعرنا بانفصاله عن إسماعيلية مصر ، وتكوينه قوة مستقلة لها كيانها الخاص . وقد ساعده على ذلك ماادعاه أولا أنه «حجة الإمام» الظاهر - المستنصر - ثم ادعاؤه بعد ذلك أنه حجة الإمام المستور ، نزار وأبنائه ، وأنه لسان الإمام الناطق .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الحسن جعل وظيفة رئيس « الدعوة الجديدة » ، مقصورة على المتفانين فى الإخلاص للمذهب الإسماعيلى ، الذين وصلوا إلى أعلى درجاتهم . ولم يجعل لمبدأ الوراثة أى اعتبار فى التمتع به ، ولذلك عين بعده أحد هؤلاء المخلصين للدعوة ، المتفانين فى طاعة مذهبهم ورؤسائهم . فدل بعمله هذا على رغبته فى إيجاد حكومة أخوية ، يسودها الوفاق والإخلاص للمذهب .

ولا يبعد أن يكون «الهسبتارية» والداوية الصليبيين ، قد أخذوا نظامهم الأخوى عن ذلك النظام الصباحى البديع ، الذى صاغه الحسن بيديه . والحق أن الحسن أوجد نظاما ولم يوجد دولة ، كدولة الفاطميين أو العباسيين ، التى أفسدت الشكليات حكومتها . يقول دوزى[1] إن إمبراطورية الحسن لم تكن إمبراطورية عادية ، كإمبراطورية الفاطميين مثلا ، بل هى نظام أخوى

---

(1) Dozy ; Essai Sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 303

له دستوره الخاص ، وجميع شئونه موضوعة فى يدى رئيسه .

ولما كان رئيس الدعوة النزارية ـ الحسن ـ قد وصل إلى أعلى درجاتها ، لم يعد فى نظر أشياعه شخصا يخضع لنواميس الشرائع التى خلقت للعامة ، بل أصبح له مطلق الحرية فى أن يفعل ما يريد ، ما دام قد تخطى حدود العامة . الذين من أجلهم نزلت الشرائع والتكليفات ، ولكن الحسن ، على الرغم من هذا كله ، كان يعمل على سيادة المبادى الإسماعيلية والتكليفات الشرعية بين الأتباع ، ماذلك إلا لأنه قد أدرك ببصيرته أن الإلحاد ، وإن كان قوة هدامة ، لا يمكنه الإبقاء على العروش التى يقيمها ؛ فها هى دولة القرامطة الملاحدة ، تذوب كأن لم تغن بالأمس ، وها هم الملاحدة الثوار ، الذين ثاروا على العباسيين ، كبابك الخرمى وأضرابه ، ينجحون لحد كبير ، ولكن إلحادهم نفسه كان وبالا عليهم فى نهاية الأمر .

ولما كان الغرض الذى يسعى إليه الحسن هو تأسيس دولة ثابتة الدعائم ، لتبقى ما بقى الدهر ، فانه نشر بين جماعته التظاهر بالتقشف والورع ، والمحافظة على ظواهر الشريعة الإسلامية ، فقتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر ، وقتل الآخر لاتهامه بالقتل ، وطرد رجلا من خيرة أتباعه من قلعة آلموت ، لأنه كان يطرب بمزماره فيها . كما عود نساءه غزل الصوف ، ليقتتن من عمل أيديهن ، وغير ذلك كثير . وكان لهذا كله أثر فى سياسة خليفتيه الداعيين ـ الكيا بزرجميد (٥١٨ - ٥٣٢ هـ) ، وابنه محمد الأول (٥٣٢ — ٥٥٧ هـ) ، مع أن الغرض الأساسى لأولئك الذين كانوا يديرون دفة شئون النزارية ، إنما هو النهوض بالدعوة

الجديدة على أنقاض المذاهب السنية (١) .

من هذا نرى أن الحسن الصباح ، رئيس الدعوة النزارية ، قد جمع فى يديه إدارة شئون الدعوة والدولة معا ، فبينما هو يتمتع برياسة الدعوة من عامة نواحيها ، إذا به يتمتع برياسة دولة النزارية وحكومتها ، فى فارس وخراسان والشام ، بل وفى الهند أيضا .

المرتبة الثانية : كبار الدعاة .

إن كانت رياسة الدعوة مقصورة على صاحب المرتبة الأولى ؛ فوظيفة كبار الدعاة مقصورة كذلك على ثلاثة من كبار رجالها ، ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة . وذلك أن الحسن الصباح ، قسم العالم الإسماعيلى النزارى إلى أقسام ثلاثة ، وأخذ يعمل على ترويج الدعوة بها جميعا ، كما جعل على رأس كل قسم منها ، واحدا من هؤلاء الثلاثة الرؤساء ، فوضع فى كل من إقليم الشام وإقليم قوهستان بخوزستان ، وإقليم رودبار ، جنوبى بحر قزوين ، داعيا كبيرا . ولم يترك الحسن لهؤلاء شيئا من الحرية والاستقلال ، بل ظل الرأس المفكرة التى يخضع الجميع لها (٢) .

وكان الحسن يطلق على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة لفظ «بحر» . فالداعى الكبير (٣) إذن ، هو الذى يتولى رياسة الدعوة دينيا وسياسيا فى إقليمه الخاص ، أو فى «بحره» الذى يعينه فيه كبير الدعوة ، ويخضع

(١) Von Hammer's Hist. of the Assassins (Arabia and Mahomet), p. 11.

(٢) البستانى : دائرة المعارف ـ لفظ إسماعيلى (ج ٢ ص ٦٢٩)

(٣) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khaliphate, p. 213.

مباشرة لآلموت ، لا للقاهرة . وفى ذلك التعيين الدليل الساطع على استقلال الحسن الصباح عن إسماعيلية مصر ، وعلى الأخص منذ عهد المستعلى ، وانفراده بالسلطة وحده . ولا بد أن تكون تلك الوظيفة قد وجدت فقط بعد موت المستنصر (٤٨٧ هـ) . والداعى الكبير فى عهد الصباح ، أشبه بالوالى تام الولاية عند السنيين . ومن أشهر كبار الدعاة النزارية الكيابزرجميد فى إقليم رودبار ، والحسين القينى فى إقليم قوهستان ، وأبو طاهر فى إقليم الشام . ومن هؤلاء كان ينتخب «شيخ الجبل» وبخاصة فى عهد الدعاة .

المرتبة الثالثة : الدعاة .

وتقتصر هذه الرتبـــة على كل من يوثق فى عقيدته وطاعته من النزارية ، ويكون قادرا ـ فى الوقت نفسه ـ على نشر مبادى «الدعوة الجديدة ـ الدعوة النزارية ـ ، ويأمره بذلك من هم أعلى منه رتبة ، أى رؤساء الدعوة فى آلموت ، أو كبار الدعاة فى عواصم «البحار» الإسماعيلية المشهورة . ويكوِّن الدعاة الدرجات العليا من درجات «الدعوة الجديدة» ، ويصلون فى تعمقهم الدينى والمذهبى ، إلى المعرفة الحقيقية لأسرار المذهب الإسماعيلى النزارى ، وإلى إدراك الغاية السياسيـة منه [1] . وهؤلاء الدعاة أيضا أكثر عددا ممن يصل إلى المرتبة السابقة ـ رتبة كبار الدعاة ـ .

وبعد أن كان الكثيرون يأخذون قسطهم العلمى فى مدارس القاهرة ، أى فى مجالس الحكمة بها ، أو على الأقل ينهلون من رجال تعلموا بتلك المدارس ،

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 206

أصبحت قلعة «آلموت» هى المركز الأساسى لتخريج هؤلاء الدعاة، توجههم كيفما شاءت؛ ولا غرو فقد أضحى نائب الإمام المستور، مستقرا بها، منذ سنة ٤٨٨، إلى سنة ٥٥٩ هـ، وستصبح مقرا للإمام النزارى نفسه بعد سنة ٥٥٩ هـ.

وعلى أية حالة، فإن الدعاة النزارية «هم الذين اعتنقوا مذهبهم النزارى، وخضعوا خضوعا تاما للسلطة الدينية والمدنية، التى يتمتع بها الرئيس النزارى الأكبر فى «آلموت»، وهم الذين يدعون الناس إلى مذهبهم، ويرشدونهم إلى طريقتهم»[١]. أو هم - كما يقول دوزى - الرؤساء المستجيبون[٢]. ولا يمنح هذا اللقب (الدعاة) إلا «لمن سبق أن تدرج فى مراتب الجمعية السرية»[٣].

والحق أن الحسن الصباح قصر عمل الداعى على بث «الدعوة الجديدة»، وعلى قبول المستجيبين إليها، وإعطائهم العهود، وأخذ المواثيق عليهم. وليس من شك فى أن دعاة النزارية كانوا يستقرون مع كبار دعاتهم فى عواصم الأقاليم النزارية الرئيسية[٤]، كما أن كبار الدعاة كانوا يختارون من بين الموهوبين من هؤلاء الدعاة. على أن دعاة النزارية لم يكونوا يتمتعون بتلك المكانة التى كان يتمتع بها زملاؤهم فى عصر

---

(١) التاليد فى مذهب أهل التوحيد (نشر ميخائيل شاروبيم)، ص ١٠

(٢) Dozy : Essai sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 303

(٣) سيد أمير على : تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، ص ٧٤)

(٤) Sykes ; History of Persia, vol. ii, p. 38

الفاطميين، أو بالأحرى، دعاة «الدعوة القديمة»، حتى أن اسم «داع» قد غير وبدل، وحل محله اسم [معلم]، وهكذا، بمضى الزمن، أصبحت تلك الأسماء رمزية فقط. فوظيفة الداعى المعروفة فى كتب الإسماعيلية النزارية حل محلها وظيفة المعلم، أى المعلم الدينى (١)، بل لقد كادت الدعوة التى كان يقوم بنشرها الدعاة عند الفاطميين، أن تقف وتتعطل عند النزارية، أللهم إلا فى مناسبات قليلة، كما لو أرسلت آلموت دعاتها، أو بالأحرى معلميها الدينيين، إلى بلاد الهند مثلا.

والحق أن الحسن الصباح اشترط فى الداعى أو المعلم الدينى «أن يكون بارعا فى التشكيك، ماهرا فى التلبيس، مقتدرا على إشراب القلوب مطالبه»(٢). ومهما يكن من أمر، فإنه بفضل هؤلاء الدعاة النزارية، انفصلت فارس والشام، من الناحية المذهبية، عن «الدعوة القديمة»، وبفضل هؤلاء الدعاة النزارية أيضا، أخذت الدعوة طريقها إلى بلاد الهند، فكان الأغاخانية ـ أتباع أغا خان ـ غرس يد هؤلاء الدعاة.

المرتبة الرابعة : الرفاق Campanions

وتلك الطبقة تفقهت فى أصول المذهب الإسماعيلى تفقه جماعة الدعاة المأذونين بنشر الدعوة سواء بسواء، إلا أنهم لم يؤمروا بنشرها، فالأولون دعاة مأذونون بنشر الدعوة، أما الرفاق فإنهم دعاة لم يؤذن لهم بعد بنشرها. ويتلخص عمل الرفاق فى التفانى فى المحافظة على جماعتهم ومذهبهم، ولا يمكنهم الوصول إلى مرتبة الدعاة إلا بالتدريج، وبعد

(١) Ivanow : Kalami Rîr, p. xiix

(٢) الأفغانى : الرد على الدهرية (ترجمة الشيخ محمد عبده)، ص ٤٠.

اختبارات عنيفة طويلة الأمد [١] . ويظهر أن الرفاق كانوا يكونون الطبقات الدينية الدنيا من الدعاة المأذونين. وهكذا يعتبر الرفاق مستودعا هاما للدعاة ، بحيث لا يختار الداعى المأذون من بينهم إلا بعد أن يبرهن على قدرته وصلاحيته للقيام بالدعوة وتفهم أغراضها ومراميها .

المرتبة الخامسة : الفداوية

وهم الذين كان الحسن الصباح يستخدمهم فى قتل أعدائه ومنافسيه غدرا ، وهم الذين يضحون أنفسهم فداء لرئيسهم . وهذا النوع من المستجيبين ، إنما اخترعه الحسن الصباح ، ليربط نفسه وعرشه بسواعدهم المفتولة . ولا يشترط فى الفداوية التعمق فى دراسة أسرار المذهب النزارى ، وإنما يشترط فيهم التفانى فى طاعة رئيسهم ، بحيث يضحون بأنفسهم فى سبيل تحقيق تلك الطاعة .

وقد استطاع الفداوية أن يكونوا آلة انتقام فتاكة ، كما استطاعوا أن يخلقوا عصرا مليئا بالخوف والفزع . وما أحسن ما وصفهم به براون [٢] حيث يقول : « هم ملائكة النقمة ، وأداة الانتقام الفعالة فى يد رؤساء النزارية » . ويقول فون همر [٣] فى هذه الطبقة : إنها تجعل المذهب السرى للدعوة الجديدة ، ولكنها السلاح الفعال ، والآلات الفتاكة فى أيدى رؤسائهم ، ليحققوا بهم رغباتهم وآمالهم .

وأهم ما يميز تلك الطبقة اتصاف أفرادها بالشجاعة النادرة المثال ،

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 206

(٢) Ibid.

(٣) Von Hammer : Arabia & Mahomet, p. 11

والقدرة على التغلب على الصعاب والمخاطرات ، التى يواجهونها أثناء تأدية وظائفهم وسفاراتهم الدموية. وكانوا يتمتعون بعزيمة لا تقهر، وصبر لا حد له[١]. ولا بدع فى ذلك، فقد بقى الواحد منهم شهورا ، بل سنين، يترقب الفرصة ليفتك بغريمه ، وليس هذا فقط ، بل يجب أن يكون الفدائى من الشبان الأقوياء ، القادرين على رياضة الجسم وإعداده للملمات ، كما يجب أن يكون قادرا على تعلم لغات عدة ، إن اقتضت ظروفه ذلك، وأن يكون مستعدا للموت فى سبيل تحقيق آمال سيده رئيس الدعوة. « فالحياة عنده لا تقارن بالسعادة الدائمة التى أعدت له إن أطاع ، وأن سقوطه قتيلا فى سبيل دعوته ورئيسه ، لمنتهى السعادة والشرف ، له ولأبنائه والمقربين إليه »[٢].

وبذلك نرى أن الإغراق فى تعلم أصول « الدعوة النزارية » لم يكن من برامج هذه الطائفة - على ما سبق القول - وإنما ينصب برنامجهم الرئيسى على إجادة استخدام الخنجر ضد المعارضين[٣] ، فكان من أثر ذلك أن نشر هؤلاء الرعب والهلع اللذين كان يفزع لهما الملوك من فوق عروشهم[٤].

وهذا الصنف من المستجيبين لم يكن موجودا قبل ظهور « الدعوة الجديدة » ، الأمر الذى يميز النزارية عن سواهم ، فقد كان العنصران الرئيسيان عند غير النزارية من طوائف الإسماعيلية، هم الدعاة والرفاق، أما

---

(١) Lockhart : Hasan-i-Sabbah (B.S.O.S, 1928-30), p. 680

(٢) St. Guyard : Un Grand Maître des Assassins, p. 23

(٣) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 97

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 202

النزارية فإن أهم عنصر لديهم هم الفداوية . والحق ان الحسن الصباح كان يركز سياسته حول أمرين اثنين : أولها ، الاستيلاء على القلاع ، وقد نجح فى ذلك نجاحا يحسد عليه ، وثانيهما الاعتماد على خناجر الفداوية ، وكان نجاحه فى هذا الغرض أعظم من نجاحه فى الغرض السابق .

ومما لا ريب فيه أن الحسن الصباح أدرك بثاقب ذهنه نجاح الدعوة المحدود فى آسيا، فى عهد الإمام المستنصر، الخليفة الفاطمى ، وقبل عهده . فرأى ألا يكتفى فقط بنشر المذهب السرى كالفاطميين . حيث لا يملك الرؤساء سوى الحيلة والذكاء ، دون السواعد والأيدى الباطشة . كما أدرك أيضا أنه على الرغم من نجاح مدارس الدعوة بالقيروان والمهدية ثم القاهرة ، وعلى الرغم من نجاح الإسماعيلية فى إضعاف العباسيين ، على الرغم من هذا كله ، فإن الإسماعيلية لم يتمكنوا من مد نفوذهم على ما كان يجب أن يكون لهم من بلاد ، فرأى الحسن إذن ، أن يوجد جماعة مخلصة لرؤساء الدعوة ، همها السيف والفتك بالعدو فقط [١] ، وهذه الجماعة وجدها فى الفداوية . ولا غرو فهم الخلاصة المتبلورة من دعاة الأبى هاشمية ، الذين قلبوا العرش الأموى ، وأقاموا الدولة العباسية ، لكنهم لم يعملوا كدعاة أو كمعلمين ، وإنما كانت غايتهم تنفيذ أوامر رئيسهم الأكبر Le Grand Maître من القتل غيلة ، ولهذا كان الفداوية من أخطر الفرق السرية فى العالم [٢] .

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins. p. 86

(٢) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Caliphate, p.214

المرتبة السادسة : اللاصقون .

ينتسب هؤلاء اللاصقون إلى الدعوة الإسماعيلية ، ولم يكن لهم عمل الدعاة أو عمل الفداوية . فهم يأخذون العهد على الناس ، دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة . كما أنهم المستودع الهام الذى ينتخب منه الفداوية [١] ، وإذن فإنهم يدربون على الاستعداد للدخول فى مرتبة الفداوية ، ومن ثم لم يكن مطلوبا منهم أن يتوغلوا فى معرفة أسرار المذهب ، فلا يعرفون منها إلا القليل ، لذلك يقول براون [٢] : « إن اللاصقين هم الذين يأخذون العهد على المستجيبين ، دون أن يفهموا كثيرا من أسس المذهب » .

ويرى بعض من العلماء غير ما ذهبنا إليه ، فيعتقدون أن مركز اللاصقين من الدعوة أسبق فى الترتيب من مركز الفداوية ، فهم لهذا أكثر معرفة بأسرار الدعوة من الفداوية أنفسهم [٣] .

المرتبة السابعة : المستجيبون .

يكون المستجيبون المرتبة الأخيرة من مراتب الحدود الدينية عند النزارية ، فهم العامة Peuple ، أو المؤمنون Fidèles المبتدئون [٤] . وليس صحيحا ما ذهب البستانى إليه فى تفريقه بين العامة والمبتدئين [٥] .

---

(١) Dozy : Essai. p. 305

(٢) Browne : Lit. Hist. vol. ii. p. 206

(٣) Ibid.

(٤) Dozy : Essai, p. 306

(٥) البستانى : دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٦٢٩

إذ أن المبتدئين هم العامة لا سواهم . وهم جميعا يكونون مرتبة واحدة من حدود الدعوة : هى المرتبة الأولى - من مراتب المستجيبين. وعلى الرغم من أنهم لم يعرفوا الكثير عن المذهب الإسماعيلى ومبادئه وأسراره ، فإن عملهم الرئيسى كان ينصب على زعزعة عقائد الناس ، ممن يخالفونهم فى المذهب (١) .

وبهذا النظام البديع فى تكوين حدود المجتمع النزارى ، استطاع الحسن أن يجعل منه قوة متماسكة ، فنجح فى أن يحقق كل ما كان الإسماعيليـــة الأوائل يسعون إلى تحقيقه ، من تكوين مجتمع إسماعيلى لا يعرف أسراره إلا القليلون ، بينما يخضع السواد الأعظم لهؤلاء القليلين خضوعا أعمى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تمكن الحسن الصباح . بفضل ذلك النظام ، وبفضل تكوينه جماعة الفداوية المخاطرين ، من أن ينشر الاغتيال السياسى المنظم ، ذلك الاغتيال الذى كان له أثر يفوق أثر الجنود المنظمة ، والجيوش الجرارة فى الدول الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر، أن الحسن الصباح عنى كعامة فرق الإسماعيلية بالعدد سبعة ، فجعل حدود دعوته الدينية سبعة ، كما رأينا ، وجعل حدود دعوته الروحية ، ومراحل هذه الدعوة سبعة كذلك . وظل هذا النظام البديع ، الذى وضعه الحسن الصباح ، نبراسا يهتدى النزارية بهديه ، طيلة حكمهم الطويل (٤٨٨ — ٦٥٤ هـ) .

---

(١) Taylor : Hist. of Mohammedanism, p. 219 .

ب — تربية الفداوية وتسخيرهم

(١) تربية الفداوية .

يعتبر نظام الفداوية بدعة القرن الخامس الهجرى ، فقد ابتدع الحسن الصباح فى تربية الفداوية نظاما وصل بهم فى النهاية إلى الاعتقاد بأن رؤساءهم يفوقون البشر ، فطاعتهم إذن واجبه . وكان يؤتى بأولئك الذين أعدوا ليكونوا «فداوية» أطفالا أو صبيانا صغاراً ، ويربون فى منازل الدعاة والرؤساء الروحانيين . أو بالأحرى فى منازل خاصة بهم ، وكانت تربيتهم تقوم على تعليمهم حب المخاطرة ، واحتقار الحياة الدنيا التى لا تعد شيئا مذكورا ، بجانب الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم دائم ، فالدين الصحيح عند هؤلاء ، هو التفانى فى بذل نفوسهم رخيصة فى سبيل طاعة رؤسائهم .

يقول البستانى[١] : «كانوا يربون منذ نعومة أظفارهم ، منحصرين فى منازل الرؤساء ، تحت نظارة الدعاة ، فيعلمونهم أن سلامهم متوقف على فداء أنفسهم ، وأن أقل مخالفة تكون سببا فى وقوعهم تحت العقوبة والمسئولية إلى الأبد ، وإن لم يبد منهم مخالفة يكون جزاؤهم الجنة» .

وقد سلك أبو سعيد الجنابى + ١٠٣هـ ، مؤسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين ، ذلك المسلك فى إعداد جيشه ، ولكن الحسن الصباح وخلفاءه ، عنوا بالناحية الروائية من الموضوع عناية خاصة ، فعملوا على

---

(١) دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٦٣١ .

إعداد هؤلاء الفتيان لمجابهة كل أنواع المخاطر، وأتقنوا معهم فنون التخفى، حتى كان الواحد منهم يمثل دور التلميذ أحيانا، ودور التاجر، أو الصوفى، أو الجندى، أو القسيس، أو ما إلى ذلك، أحيانا أخرى.

وقد زاد براون (١) هذا الأمر وضوحا فقال: إن الفداوية كانوا يدربون التدريب الكافى على استعمال السلاح، وتحمل المشاق، وإجادة التخفى، وفوق ذلك كله، كانوا يتدربون على معرفة اللغات الأجنبية، حتى الأوربية منها. وكان هؤلاء الفداوية مغرمين بتمثيل أدوارهم فى شكل روائى، فيقتلون الأمراء السنيين فى أيام الجمع وفى المساجد، كما يقتلون الدوق، أو الأمير المسيحى، فى الكنيسة تحت سمع المجتمع وبصره.

وقد يتساءل المرء عن الكيفية التى مكنت الحسن الصباح وخلفاءه من جعل أولئك الزراع البسطاء، وسكان الجبال الأجلاف، شجعانا يضرب بهم المثل فى شجاعتهم، فلا يخافون الموت أو يرهبونه؟ والجواب على ذلك، أن الحسن الصباح جعل جميع أتباعه يؤمنون بأنه إنسان يفوق البشر عامة، ويستطيع الإتيان بالمعجزات، وفوق ذلك، فهو حجة الإمام، الذى يمتص منه العلم والمعرفة.

والحق أن الحسن الصباح كان قادرا على الإتيان بالحيل التى تشبه المعجزات، مما زاد فى انجذاب الناس إليه. حتى لقد رمى بأنه حين طلب منه بعض أتباعه أن يقيم لهم برهانا على حضور الإمام نزار، قال لهم: «الآية فى ذلك، أن يطلع القمر فى غير وقته، ومن غير مطلعه، ثم عمد إلى جبل هناك مرتفع شاهق، وأخذ شيئا شبيها بالدَّن (٢)

---

(١) Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 209.

(٢) الدَّن: وعاء كبير، كالبرميل.

الكبير . عمن خلفه ضـــوءا ورفعه . فلما رأوه بشر بعضهم بعضا بالإمام [١] » . فكان مثل ذلك الادعاء ، وهاتيك الشعوذة ، وما تلقنه هؤلاء الدعاوية فى صغرهم من معلميهم ومرشديهم عن صفات الحسن الصباح الخارقة للعادة ، كان كل هذا من العوامل التى جعلت الدعاوية يتسابقون فى طاعته وطاعة خلفائه من بعده .

ويذهب الكثير من المؤلفين ، شرقيين وغربيين ، إلى القول بأن الحسن الصباح لجأ فى إغواء الدعاويين ، والتأثير فى أذهانهم إلى إيهامهم أنه نبى . بل إلى أنه أرفع درجة من النبى . فجعل معلموهم يقنعونهم أن باستطاعة الحسن إدخال من يشاء منهم الجنة ، التى وردت فى القرآن الكريم . وأداه ذكاؤه الخارق . إلى تكوين حدائق ملأها بكل ما ورد فى القرآن عن الجنات التى وعد بها المتقون . . . ولما كان الحسن على علم كبير بالطب . وبخصائص بعض النباتات . فقد أجاد فى صنع مخدر يتناوله هؤلاء الشبان . ثم يحملون إلى تلك الحدائق ، فإذا رأوا ما فيها ، أيقنوا أنهم بالجنة ، ثم يعودون بعد تناولهم المخدر ، الثانى مرة ، إلى مكانهم الأول ، فيسرد عليهم الرئيس كل ما رأوه فى تلك الحدائق ، ويسردون هم لزملائهم ما شاهدوا . فيزدادون جميعا اعتقادا فى نبوته ، بل فى ألوهيته .

وقد كان لما ذكره ماركو بولو الرحالة الأوربى البندقى ، الذى عاصر الزيارية ، عن ذلك الموضوع أثره الكبير ، فطفحت به

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط بدار الكتب المصرية) ، جـ ١٢ ورقة ٦٩ ، متشبها فى ذلك بالمقنع الخراسانى ، الذى ثار على العباسيين فى عهد الخليفة الثالث ، المهدى .

الكتب ، وامتلأت بالتعليق عليه . الأمر الذى زاد تاريخ الفداوية وضوحا وجلاء ، وذلك أن ماركوبولو ، وصف إخلاص الفداوية لسادتهم من رؤساء «آلموت» ، وخصوصا أيام رئيسهم السابع ـ الإمام علاء الدين (٦١٨ — ٦٥٣ هـ) ، فقال : إن شيخ الجبل أنشأ فى واد بين جبلين ، بالقرب من «آلموت» ، أجمل حديقة يستطيع العقل البشرى تصورها ، وجلب إليها جميع أنواع الفواكه الجميلة الموجودة فى العالم ، كما أقام بها القاعات الفخمة ، والمقاصير الآخذة بمجامع القلوب . فكانت مموهة بالذهب ، ومزينة بصور كل ماهو جميل فتان . زد على ذلك ما أنشأه فيها من قنوات يجرى فى بعضها الخمر وفى بعضها اللبن ، وفى البعض الآخر العسل أو الماء الشهى (١) ، وهناك أيضا نساء وفتيات (٢) ، وقد جعل شيخ الجبل القوم يعتقدون أن هذه الحديقة هى الجنة بعينها ، فبناها على النمط الذى ذكره الرسول للعرب ، ووعدهم بأنها من نصيب المتقين ، وفيها فوق ذلك ، الحور العين ، والغلمان «كأنهم لؤلؤ مكنون» ، وبهذه الوسائل اعتقد النزارية أن هذه هى الجنة نفسها الواردة فى القرآن الكريم .

وكان شيخ الجبل ـ كما وصفه ماركو بولو ـ يبقى بقصره فى آلموت غالبا ، أو فى معسكر خاص ، جميع الشبان ، الذين اختيروا ليكونوا فى طبقة الفداوية ، ولم يكن يقل عمر الواحد منهم عن اثنى عشر عاما ، ولا يزيد على

---

(١) يتمثل بقول الله تعالى فى الجنة : « مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات » سورة محمد ، آية ١٥ .

(٢) لقوله تعالى : « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » سورة الواقعة آية ٢٢ ، ٢٣

العشرين . وكانوا ممن تبدو عليهم المقدرة الزائدة على حمل السلاح . كما كانوا يلقنون كثيرا عن الجنة التى وصفت فى القرآن ، بحيث يطابق ما ورد فى القرآن عنها جميع أوصاف حديقة شيخ الجبل ، وكان الرئيس النزارى ـ الحسن الصباح وخلفاؤه ـ يستخدم أبرع الوسائل لإيصال أولئك الشبان إلى الحديقة . فيحملون إليها ، حسب ما يريد هو ، فتارة يكونون أربعة ، وتارة عشرة . وأخرى عشرين .

والطريقة التى يسلكها شيخ الجبل مع الفداوية ، هو إحضارهم إلى منزله . ثم يجالسهم فى حضرته ، ويتسامر معهم ، ويعطيهم بعد ذلك مشروبا مخدرا ، يسقطون بعده نياما . فيحملون إلى الحديقة ، ويوقظون هناك . فيرون أنفسهم فى تلك الحديقة التى سبق وصفها ، فيعتقدون أنهم فى الجنة ... ويجدون هناك كل ما تصبو نفوسهم إليه ، ويودون البقاء فيها مدى الحياة ، ولكنهم سرعان ما يغادرونها رغم أنوفهم ، فينوّمون من جديد ، ويحملون إلى دار رئيسهم ، وإلى المجلس الذى كانوا فيه ، فإذا ما أفاقوا وجدوا أنفسهم فى نفس المكان الذى كانوا فيه من قبل ، وإذا سألهم الرئيس عن المكان الذى كانوا به . أكدوا له أنهم كانوا بالجنة التى وعد بها المتقون . ثم يندفعون يقصون ما رأوا ، كل هذا وشبان القصر الآخرون واقفون ينصتون . فيزداد الجميع تحرقا ورغبة فى الذهاب إلى هذه الجنة ، فيلتهب شعورهم ، ويستعدون للموت كى يذهبوا إليها ، ويشتاقون جميعا إلى اليوم الذى يموتون فيه ليدركوها .

ويلجأ شيخ الجبل بعد ذلك إلى طريقة التجربة ، فاذا ما أراد قتل

رجل عظيم . أخذ يوفد هؤلاء الشبان إلى الجهات المجاورة ، ويعين لهم قريسة يختارها بنفسه ، ويرسل وراءهم جواسيسه . ليروا أى الشبان أقدر على القيام بتنفيذ المهمة المقبلة . فاذا ما انتهوا من مهمتهم الأولى ، عادوا جميعا إلى قصر رئيسهم . فيختار منهم من يقوم بقتل ذلك الرجل العظيم ، الذى يريد قتله ، ويخبرهم أنه إنما أمرهم بذلك ليرسلهم ثانية إلى الجنة التى تمتعوا بها حينا . ثم يقول لهم : «إذهبوا واقتلوا فلانا ! فاذا مِتُّم فإنكم لا محالة ذاهبون إلى الجنة » . وكم يكون عظيما سرور من يقع عليهم الاختيار لتنفيذ رغبة الرئيس النزارى ! . وهكذا لا يمكن لكائن من كان أن يفر من الموت إن أراد شيخ الجبل قتله (١). هذا ، وكان شيخ الجبل يقتل الفداوية الذين يعودون سالمين بعد أداء سفاراتهم الدموية (٢).

ولكن أمن الممكن أن يكون كل ما ذهب إليه ماركو بولو صحيحا ؟ يرى ما لكولم(٣) وغيره من المؤرخين أن ذلك محض افتراء ، ويستدلون على هذا بأن الحسن الصباح كان يقتل شاربى الخمر ، فلا يعقل إذن أن يبيح شرب المخدرات ، التى أطلق عليها المؤرخون اسم «الحشيش» . ولكن فات هؤلاء العلماء أن الحسن الصباح كان رجل سياسة ، لا رجل دين فقط ، وأنه لجأ إلى التظاهر بالتدين لينال مآربه كاملة فى جذب الأشياع . وفاتهم كذلك أن ينصتوا لأقوال العلماء الشرقيين القدماء خاصة ، حيث قالوا فى الحسن الصباح : «وكانت سيرته فى دعاته ألا يدعو إلا غبيا

---

(١) Ricci : The Travels of Marco-Polo, pp. 50 — 52

(٢) Ibid.

(٣) Malcolm : The History of Persia, vol. ii, p. 245.

لا يفرق يمينه من شماله ، ومن لا يعرف أمر الدنيا ، ويطعمه الجوز والعسل والشونيز حتى تنبسط دماغه » (١).

وإذن فإن إعطاء المخدر ، أيا كان نوعه ، كان يعرفه عند الدعاة النزارية ورئيسهم الحسن . على أننا نوافق مالكوم فى أن تعاطى ذلك المخدر «الحشيش» كان محرما على العامة من الإسماعيلية . ومن المحتمل جداً أن يكون امتلاك تلك المادة مقصورا على الحسن وحده ، وعلى قليل ممن يثق بهم ، ولا نستبعد ذلك على الحسن الصباح ، لأنه كان على شىء كبير من معرفة خصائص النبات ـ على ما تقدم القول ـ .

والشىء الذى لا يمكن إنكاره ، هو عظيم تأثير الحسن فى أتباعه ، ذلك التأثير الروحى ، الذى ساعده على تنفيذ مآربه السياسية ، ولكن لا يبعد عليه أن يضيف إلى ذلك التأثير الروحى تأثيرا ماديا آخر ، خصوصا بعد ما رأينا بعض رجال الدين فى الشرق ـ الوهابيين ـ والغرب ـ البابوات ـ يبيعون لأتباعهم القصور الفخمة والضياع الواسعة فى الجنة(٢) وأن هؤلاء كانوا يجدون كل تصديق وتضحية من أتباعهم .

ولم يكن هذا كل ما كان الحسن الصباح يفعله فى تربية الفدوية ، فقد أخذ على عاتقه تأليف الكتب فى طرق تربيتهم ، وفى الوسائل الآخاذة التى

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، ص١١٧ .

(٢) يرى جويارفى كتابه (Un Grand Maitre, p. 22) ان أحد الوهابيين طعن رئيسا من رؤساء العرب بالقرب من البصرة ، ولم يشأ أن يعيش بعد فريسته ، فقتل نفسه ، وهو يقبض فى يده على ورقة ، فيها أن رئيس الوهابية باعه بحياته قصرا من زمرد ، وعددا من الحور العين ، فى أحسن بقعة من بقاع الجنة .

تحببهم إلى رياسة الدعوة ، وتدعوهم إلى الإخلاص والطاعة ، الأمر الذى ساعد أولئك البسطاء على أن يكونوا - كما قال جويار [١] - آلة انتقام رهيبة فى يد الرؤساء النزارية .

وفى الحق أن الجماعتين الخطيرتين اللتين تعرض الإسلام لهما ، وهما النزارية والصليبيون «الفرسان» ، كانت كل منهما تخضع خضوعا لا حد له لرؤسائها الروحيين ، فلم يكن للسواد الأعظم ولا للعامة منهم إلا أتباع أوامر الرؤساء . وإذا صدقنا أن البابا إربان الثانى ، وغيره من البابوات ، أعلنوا أن من يسقط من الصليبيين فى القتال قيد فى المملكة الأبدية The Kingdom of Heaven ، وأن أثر ذلك الإعلان كان عظيما بين الصليبيين ، إذا صدقنا هذا ، فلم لا نصدق ما ذهب البعض إليه ، من القول بأن الحسن الصباح كان يوهم أتباعه بجنة يتمتعون بها ، وأنه اعتمد فى البرهنة على دعواه هذه بأمور مادية ، هى ما رأيناها ؟

على أن القتل الذى برع الفداوية فيه ، لم يكن للانتقام وحده ، بل كثيراً ما اتخذه الحسن وسيلة لإرضاء الأصدقاء ، والحصول على الأموال يملأ بها خزائنه . وكان النزارية ينظرون إلى من يقتل من الفداوية على أنه من الشهداء ، ويقدمون المال والهدايا إلى ذويه ، ويعتقونهم إذا كانوا من الأرقاء [٢] .

وهكذا كان الفداوية ، على ما يقوله الصليبيون أنفسهم ، يعتقدون

---

(١) St. Guyard : Un Grand Maître des Assassins au Temps de Saladin, p. 22.

(٢) Taylor : Hist. of Mohammedanism & Its Sects, p. 218

« أنهم بالموت يفوزون بجنات النعيم ، تحت مضارب من أرجوان ، فى بساتين تجرى بين أشجارها المحملة بالأثمار الفردوسية ، سواق من لبن وعسل ، مع باقى الملذات الجسدية بتمامها... ومن ثم كانوا يهجمون على أخطار الموت بلا افتكار بخوف . لا ! بل كانوا يوجدون فيما بين أعدائهم ، بوجوه باشة ، ويقتبلون منهم العذابات والموت ، خلوا من مبالاة ، كى يذهبوا حالا إلى جنات النعيم »(١) . ويرتبط بالفداوية البحث فى أسمائهم التى تميزهم عن سواهم .

٢ — تسمية الفداوية

اشتهر الفداوية فى الشرق والغرب ، لما كانوا يقومون به من اغتيالات منظمة ، وأطلق الغربيون عليهم اسم « حشاشين » ، حتى أن الفعل الانجليزى - to assassinate إنما اخترع بعد الحروب الصليبية . وقصد به القتل غدرا ، ويرى العلماء أن كلمة The Assassins التى يقصد بها القاتلين غدرا ، تحريف لكلمة « حشاشين » الذين يقصد بهم « الفداوية » ، لاشتهارهم بتناول هذه المادة المخدرة « الحشيش » . وإنك لترى العلماء الغربيين المعاصرين للنزارية ، يطلقون عليهم جميعا هذا الاسم .

فيرى جوانفيل Joinville ، وهو من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ، يطلق على النزارية عامة اسم حاسوساسى Hasussassi أحيانا ، وأحيانا أخرى اسم أساسى Assacis . وليس من شك فى أن هذه

---

(١) مكسيموس : تاريخ الحروب المقدسة ، جـ ١ ص ٢٤٦ .

الأسماء جميعا محرفة عن كلمة حشاشين أو حشيشية [١]. والحق أن الحسن الصباح كان يلجأ إلى استخدام تلك المادة - كما رأينا - وعلى الرغم من أنه لم يبح استخدامها لأتباعه، فإنه كان يستخدمها لتحقيق مآربه. حيث يجعلهم فى حالة يتصور فيها المرء الوهم على أنه حقيقة [٢].

وليس ماذهبنا إليه بعيد التصديق. بعد ما رأينا العلماء الشرقيين يسمون النزارية الحشيشية. فنرى أبا شامه [٣] وابن ميسر [٤]، وكلاهما من علماء القرن السابع الهجرى، يطلقان على النزارية لفظ حشيشية. ومن ذلك نرى أن إطلاق كلمة حشيشية على الفداوية كان شائعا بين السنيين أنفسهم، فى العهد الذى نتكلم عنه، وأن العلماء الغربيين حرفوا تلك التسمية. ولكنهم اختلفوا فى ذلك التحريف. فمن قائل: إن الفداوية كانوا يسمون «أساسينى» Assassini، ومن قائل إنهم يسمون «أسيسينى» Assissini أو «هشيشينى» Heississini [٥]، ويسميهم كثير من مؤرخى الصليبيين «هاسيسين» Hassissins [٦]

---

(١) Joinville : Hist. de St. Lewis, p. 453

(٢) Von Hammer. Hist. de l'Ordre des Assassins p. 354.

(٣) و(٤) أخبار مصر لابن ميسر، ج ٢ ص ٢٨، وكتاب الروضتين لأبى شامة، ج ١ ص ٢٥٩.

(٥) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol, ii. p. 294.

(٦) Recueil des Historiens occidentaux des Croisades, vol. ii, p. 190.

ويرى العلماء المحدثون إرجاع هذه الأسماء المختلفة إلى أصل واحد، هو كلمة « حشيش » Hashish، ويقول دى ساسى : إن الكتّاب اللاتينيين حرفوا هذه الكلمة إلى مفردها ـ حشيشى Hashishi، ونطقوها بألفاظ مختلفة، منها ما تقدم ذكره (١).

ويقرب صحة هذا إلى أذهاننا ما ذهب إليه دارتولد في قوله : « كانت للمذهب هيئة سرية مكونة من الفدائيين المغالين في التعصب، يؤمن أفرادها بإمكان قتل من يريدون قتله، أيا كانت شخصيته. وكان لتعاطى « الحشيش » تأثير في شجاعة هؤلاء المتعصبين. وقد أخذت كلمة أساسين Assassins الفرنسية من كلمة الحشاشين العربية، وتدل هذه الحالة على أن نظام الإسماعيلية ـ النزارية ـ ترك أثرا شديدا في الأوربيين في القرون الوسطى (٢) ».

ويظهر أن شهرة استخدام تلك المادة في الشرق كانت ذائعة في أوربا منذ العصور الوسطى، حتى القرن الثامن عشر، حتى أن نابليون بونابرت ـ وهو بمصر ـ (١٧٩٨ - ١٧٩٩ م) أصدر قرارا حرم فيه استعمال هذه المادة أو بيعها، خصوصا بين الطبقات الفقيرة (٣).

على أن استعمال ذلك الاسم اليوم « حشاشين »، يختلف عن استعماله في زمن الحسن الصباح وخلفائه ؛ فإن المقصود به اليوم من يدمنون على

---

(١) Defremery : N. Recherches (J. A. 1854), p. 358

(٢) دارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٦ — ٨٧.

(٣) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 354

وقديما فعل الظاهر بيبرس ذلك وأشد منه. انظر كتابنا « إسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم ».

تعاطى مادة « الحشيش » . أما المقصود به فى الزمن الذى نتناول الكلام عليه . فإنما هم قوم برعوا فى فنون القتل . وقد فهمنا مما تقدم، العلاقة بين استعمال تلك المادة وبين القتل غيلة (القتل السياسى المنظم) . ومما لامراء فيه ، أن الكتاب حين كانوا يذكرون تلك التسمية ، كانوا يطلقونها على جميع النزارية ، وهذا خطأ ، لأن ذلك الاسم ينطبق فقط على جماعة من الفداوية ، ممن تناولوا هذا المخدر ، وقد أخذ العلماء يتفننون فى إرجاع تلك التسمية إلى أصول مختلفة غير « كلمة حشيش » .

فيعتقد كازانوفا أن هناك علاقة بين الكلمة السكسونية « سكس » Seax ، ومعناها السكين ، وبين كلمة حشيشية أو حشاشين . وهذا تعسف ظاهر، حيث يريد الكاتب تطبيق الاسم على المسمى، بإتيانه بكلمة لا يعرف لها علاقة البتة بكلمة « حشيش » أو « حشاشين » . ومثل كازانوفا من يحاول إرجاع تسمية الفداوية (الحشاشين) إلى كلمة « شاهنشاه (١) » ، فأى ارتباط بين كلمة شاهنشاه وكلمة حشاشين أو حشيشية ؟

ويرى آخرون أن كلمة « أساسين » Assassins مأخوذة عن كلمة عبرية هى Essenes ، ومعناها « يقتل » . وكل هذه آراء بعيدة التصديق . وقريب من هذا ما ذكره البستانى فى دائرة معارفه حين قال : إن لفظ « أساسين » حرفها الفرنجة عن كلمة « عساسين » ، ومفردها « عساس » ، أى

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 203

حارس ، لأن النزارية كان من عملهم حراسة البلاد من السرقات (١) .
وهذا الرأى رغم وجاهته ، لتقارب النطق بين كلمتى « حشاشين » و « عساسين » ، لا يقوم على أساس تاريخى صحيح ، إذ لم نجد مؤلفا عربيا واحدا ذكر ذلك ، هذا إلى أن كلمة «عساس» لا تدل على المعنى الدقيق المقصود من الفداوية ، وهو القتل غيلة ، والاشتهار كذلك بتعاطى مخدر مخصوص هو الحشيش .

وعلى الرغم من ذلك الاختلاف فان هناك أمرين جديرين بالملاحظة :

أولها : أن الكثيرين من المؤرخين يؤكدون استخدام رؤساء الدعوة النزارية لمادة مخدرة تعرف « بالحشيش » ، تستعمل فى إحدى مراتب الدعوة فقط ، أى للفدائية لاغير ، دون تشجيع استخدامه للمراتب الأخرى (٢) .

ثانيهما : أن أولئك الفداوية اشتهروا بالقتل غيلة ، فحاول العلماء جعل اسم الحشيشية ينطبق على ما عرف عنهم من سفك الدماء ، فأتوا بآراء مختلفة ، معظمها غير قابل للتصديق .

ويصح أن نأتى برأى آخر هو : إذا كانت كلمة أساسين Assassins تعنى القتلة ، وأنها قد اشتقت أو حرفت عن كلمة «حشاشين» ، وهم الذين اشتهروا بالقتل غدرا ، كما اشتهروا باستخدام مادة الحشيش على النحو الذى شرحناه ، فلم لانرجع ذلك إلى أصل عربى بحت؟ فنقول : إن كلمة حشاشين

---

(١) البستانى : دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٦٢٩ .

(٢) Browne ; Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 206

محرفة عن كلمة حسَّاسين ، ذلك أن كلمة « حسَّ » فى اللغة العربية معناها استأصل قتلا . وقد وردت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم بإذنه » (١) أى إذ تستأصلونهم وتبيدونهم قتلا باذن الله . وقد ورد فى القاموس ما نصه : « حسَّ » حسوهم : استأصلوهم قتلا . وبابه رد . ولما كان اسم الفاعل من هذا الفعل هو « حاس » بمعنى قاتل ، وصيغة المبالغة منه هى « حسَّاس » بمعنى الكثير القتل غيلة ، وجمع التذكير السالم من صيغة المبالغة هو « حسَّاسون » أى كثيرو القتل والاستئصال ، لما كان ذلك كذلك ، فانه لا يبعد أن تكون كلمة حشاشين محرفة عن كلمة حسَّاسين .

ولزيادة التوضيح نقول : لما للنزارية ، وبخاصة الفداوية منهم ، من شهرة فى الاغتيال المنظم بولغ فى وصف خطرهم ، فأطلق عليهم اسم « حسَّاسين » لكثرة ما كانوا يرتكبونه من اغتيالات . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، حرفت كلمة « حسَّاسين » إلى أسَّاسين عند الفرنجة ، وإلى حشيشية عند مؤرخى العرب . ونعتقد أنه ليس هناك إسراف أو مبالغة فيما ذهبنا إليه . وان انطباق المعنى الحرفى لهذه الكلمة « حسَّاس » حساسين على جميع أعمال الفداوية ، يقربنا إلى تصديق صحته .

على أن هناك رأيا آخر يكاد يكون وجيها ، وهو أن كلمة أساسين Assassins ، المعروفة عند الأوربيين ، تحريف لكلمة « حسنيين » ، نسبة إلى الحسن الصباح . ذهب إلى ذلك جماعة من المؤرخين وعلى رأسهم مالكولم (٢) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٥٢ .

(٢) Malcolm ; The History of Persia, vol. i, p. 241

ويرتبط بالكلام على أسماء الفداوية ، البحث فى تسمية أنصار الحسن الصباح ، فمن العلماء من يسميهم «باطنية» ، كالغزالى وغيره ، وهذه التسمية عامة ، تشمل أتباع الصباح وغيرهم من طوائف الإسماعيلية ، كما تشمل غير الإسماعيلية ، ممن يقولون بالباطن . ومثل ذلك تسميتهم السبعية ، أى القائلون بالأئمة السبعة . لأنها تشمل جميع فرق الإسماعيلية حتى الدروز والقرامطة منهم . وخير تسمية لأتباع الحسن الصباح ، هى « النزارية » ، لأنهم نادوا بعد موت المستنصر بإمامة ابنه الأكبر نزار ، وتفانوا فى ذلك ، وكان اشتهارهم بالنزارية أكثر من اشتهارهم بالحسنيين ، لأن الحسن الصباح لم يشأ أن يظهر بما يدل على ثورته على نزار - إمامه المستور - كما لم نر مؤلفا واحدا معاصرا أطلق على الحسن اسم « الحسنيين » .

وأما تسميتهم « الفداوية » فتسمية ناقصة . لأن الفداوية طبقة من طبقات النزارية ، فهى إطلاق الجزء على الكل . ومثل ذلك تسميتهم الحشيشية أو الحشاشين . لأن تلك التسمية لا تنطبق إلا على الفداوية وحدهم .

ويرى بعض العلماء أن اسم « حشيشية » أو حشاشين خاص بنزارية الشام . والحق أن نزارية الشام ونزارية فارس سواء فى كل شىء ، فلا معنى إذن لهذه التفرقة . وأما تسمية أتباع الحسن « ملاحدة » ، فيكاد لا ينطبق عليهم كثيرا فى عهد هذا الزعيم ، ولا يمكن انطباق هذه التسمية عليهم إلا بعد سنة ٥٥٩ هـ - كما سبق القول - أما إذا قصد بالإلحاد العدول عن ظاهر الكتاب إلى باطنه ، واللجوء إلى التأويل ، فإن

تلك التسمية لا تميزهم عن سواهم من فرق الباطنية . وأما ما ذهب إليه ابن خلدون من تسمية أتباع الحسن الصباح بالقرامطة[١] ، فصحيح من ناحية كونهم جميعا إسماعيلية ، ومن ناحية اتفاقهم فى الثورة الصريحة على الدين والدولة معا ، ولكنه خطأ من ناحية أخرى ، إذ أن القرامطة غير النزارية بالطبع .

(ح) التنظيم الروحى فى المجتمع النزارى

وإذا كان الحسن الصباح قد وضع كل عضو من أعضاء جماعته فى المركز الدينى الذى يجب أن يشغله فى حياته ، بحيث كان الجميع ، من الناحية العملية ، يخضعون خضوعا أعمى للحسن نفسه ، فانه لم يهمل الناحية الروحية ، ونظم مجتمعه الإسماعيلى تنظيما روحيا ، بجانب تنظيمه العملى ، بحيث ينتهى بهم جميعا إلى الخضوع للإمام الغائب ، فقسم المجتمع النزارى إلى سبع مراتب : تبدأ من المستجيب العادى ، وتنتهى بالإمام النزارى الغائب ، وغرضه من التقسيم الروحى ، جذب قلوب الأشياع إلى الإمام ، والظهور أمامهم بمظهر التابع الوفى لإمامه ، حتى يتكالب الجميع فى رفع منار دعوة هذا الإمام . ومما تجدر الإشارة إليه أن الحسن كان يعتقد أن إمامه المستور هو نزار ، ثم أبناؤه من بعده ، ويرى أن الإمام المستور دخل فى دور الاختفاء ، وأنه حى يترقب الفرصة للظهور ، وأنه فوق هذا وذاك منبع العلوم والمعارف ، وأنه معيّن بالنص من الله تعالى .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٦

وتشغل رتبةُ الإمامة فى هـذا التقسيم الروحى المقامَ الأول ، ولم يكن لهذه المرتبة فى التقسيم المادى السابق وجود . وقد اهتم الحسن بمبدأ الإمامة ، وأخذ يؤلف الكتب الكثيرة فيها. حتى لقد أفاد الحسن الثانى النزارى — الرئيس الرابع — (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) من هذه الكتب وتلك المبادىء ، التى كان الحسن الصباح يروجها ، واستغلها فى دعـواه بأنه الإمام المستور . وبهـذا نرى أن الحسن الصباح قد أعاد مبدأ الاستتار ، الذى كان ينادى به أبناء القداح ، رؤساء الدعوة الإسماعيلية الأوائل ، فى عصر الستر الأول . وقد ظل دور الستر النزارى منذ خلقـه الحسن الصباح سنة ٤٨٨ هـ ، حتى سنة ٥٥٩ ، حين نادى الحسن الثانى السابق الذكر بنفسه إماما ، وقال: إنه هو الإمام النزارى المستور .

وتلى رتبةَ الإمام رتبةُ « الحجة » ، نائب الإمام . وهذه الرتبـة تمتع بها الحسن الصباح ، منذ سنة ٤٧٢ هـ ، حين عينه المستنصر « حجة » على خراسان. ووظيفة « الحجة » عند النزارية لها مكانتها السامية، فهى كما سبق القول ، تفوق وظيفة داعى الدعاة الفاطمى ، بل تفوق وظيفة « الحجة » عند الفاطميين أنفسهم ، ولا غرو ، فإن « الحجة » الفاطمى ينوب عن إمام ظاهر ، على حين ينوب « الحجة » النزارى عن إمام مستور ، فهو والحالة هذه أكثر نفوذا .

أضف إلى ذلك أن النظام الفاطمى كان يجعل للدعوة الفاطمية « حججا » كثيرين ، يصلون أحيانا إلى أربعة وعشرين « حجة » ، أما فى النظام النزارى الروحى ، فليس هناك سوى « حجة » واحد ، هو الحسن الصباح ، ثم خليفتاه من بعده بالتتابع . ومهما يكن من شىء ،

فإن «الحجة» النزارى كان يتمتع فى نظر النزارية ، بما كان يتمتع به الإمام نفسه ، من التقديس والإجلال ، كما أنه يأخذ العلم والمعرفة عن الإمام ، وكذلك لا يمكن أن يكون هناك إمام بدون حجة ؛ فالحجة ظل الإمام . لا يفارقه ، ومن ثم وجب على الأشياع أن يولوه الطاعة التى يولونها الإمام نفسه . وبفضل هذا كله ، كان الحسن يتمتع بشىء كبير من السلطان المطلق ووظيفة «الحجة» فى التقسيم الروحى تطابق مرتبة «شيخ الجبل» ، أو «رئيس الدعوة» Le Grand Maitre ، فى التقسيم المادى سالف الذكر.

ولكى يجذب الحسن الصباح الأتباع إليه ، وإلى خواص أنصاره ورؤساء دعوته فى الأقاليم المختلفة ، كان يقول : إن للحجة نوابا ينوبون عنه ، يسمى واحدهم «ذامصة» ، وهذا يمتص العلم من «الحجة» ، كما يمتصه «الحجة» عن الإمام ، وموقفه من «الحجة» موقف «الحجة» من الإمام ، سواء بسواء . ونعتقد أن الحسن الصباح ، إنما قصد بذلك المبدأ ، تبرير تعيين كبار الدعاة شيوخا للدعوة فى كبريات الأقاليم (البحار) الإسماعيلية ؛ لأنه إذا كان «ذومصة» يمتص العلم من «الحجة» ، ويمتص «الحجة» العلم عن الإمام ، فإن «ذامصة» بالتالى ، يأخذ معارفه عن الإمام بطريق غير مباشر ، وهذا وحده هو ما حدا بالنزارية إلى التفانى فى طاعة الداعى الأكبر - شيخ الجبل الثانى - الرئيس الكيا بُزُرْجُميد (٥١٨ — ٥٣٢هـ) ، وشيخ الجبل الثالث ، الرئيس محمد الأول ، رغم أنهما كانا من كبار الدعاة فقط . وبذلك نرى أن هذه الرتبة فى ذلك التقسيم ، تطابق مرتبة كبار الدعاة فى التقسيم الأول .

ويأتى «الداعى» بعد «ذى مصة» . والداعى فى التقسيم الروحى

هو نفسه فى التقسيم المادى لحدود الدعوة . ويسمى الداعى النزارى أحيانا «بابا» ، أى أنه باب الإمام عن طريق الحجة . فإن كان «الحجة» «باب» الإمام المباشر ، فإن الداعى «باب» الإمام غير المباشر ، لأن الداعى «باب» «الحجة» الذى هو «باب» الإمام (١).

على أن رتبة «المأذون» تلى رتبة الداعى ، ويظهر أن عمل المأذون جزء من عمل الداعى ، أو على الأقل كان «المأذون» يمهد الأمور للداعى ؛ فكان يأخذ العهد على المستجيبين ، مما يدل على أن التأثير فى الناس وبث أصول المذهب النزارى ، كان من عمل الدعاة ، وإن كان أخذ العهد على المستجيب من عمل «المأذونين» .

ويلى رتبة المأذون رتبة «المكلبين» ، سموا بذلك تشبيها لهم بكلاب الصيد ، لأنهم «ينصبون للناس الحبائل ، ويكيدونهم بالغوائل . وينقضون على كل عاقل ، ويلبسون على كل جاهل» (٢) . ومن هذه التسمية نرى الصراع المحتدم بين النزارية وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، ونرى اعتماد النزارية على طائفة «المكلبين» فى زحزحة عقائد من يخالفهم فى المذهب ، والوصول إلى قلوبهم ، وغزوها بشتى الوسائل ، التى برع فيها النزارية .

أما الرتبة السابعة ، وهى الرتبة الأخيرة ، فى التقسيم الروحى ، فهى رتبة المستجيب ، التى تشبه رتبة العامة فى التقسيم المادى ، وهى المدخل الأساسى للمذهب الإسماعيلى .

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٣

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ، ص ١٩

وهكذا اهتم الحسن الصباح بالمراتب الروحية ، فجعلها سبعا ، مقلدا في هذا أستاذه الأول ، عبد الله بن ميمون القداح ، مؤسس المذهب الإسماعيلي . هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، عمل الحسن على أن يضيف إلى التأثير المادى فى تقسيمه الأول ، تأثيرا روحيا فى تقسيمه الثانى . وقد كان للتقسيم الروحى أثره فى وحدة المجتمع النزارى ، إذ بفضله قوى مركز شيوخ الجبل وكبار دعاتهم . وهكذا ساهم التقسيمان ، المادى والروحى ، اللذان ابتدعهما الصباح ، فى خلق جماعة اسماعيلية متماسكة .

(٤) طرق الدعوة النزارية

كان تقسيم حدود المجتمع الإسماعيلى ، روحيا وماديا ، ينصب على شخصيات الأتباع النزاريين ، أو بالأحرى على المستجيبين فى درجاتهم المختلفة . على أن الحسن الصباح ، وضع لجذب المدعوين وضمهم إلى نطاق الدعوة النزارية ، طرقا مختلفة ، تدل فى مجموعها على اللباقة والقدرة فى التأثير على النفوس . ومن ثم قسم هذه الطرق إلى درجات سبع ، لا تختلف كثيرا عما وضعه عبد الله القداح ، أستاذ الإسماعيلية الأول . وتنتهى هـذه الدرجات إلى شىء واحد ، هو إخراج المستجيب من عقيدته الأولى ، التى كان يعتقدها ، وإدخاله إلى حظيرة المذهب الإسماعيلى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، اتخـذ الحسن الصباح خطوات الدعوة النزارية وسيلة لإرشاد دعاته وتعليمهم ، حتى لا يضموا إلى مجتمعهم إلا الأعضاء النابغين الصالحين . وهاك خطوات « الدعوة النزارية » كما وضعها الحسن الصباح

الخطوة الأولى : التفرس

والمقصود «بالتفرس» إدراك حالة المدعو إدراكا صحيحا ، والوقوف على مكنونات نفسه : هل هو قوى الإرادة ، أو يميل إلى التردد ؟ أهو سهل الانقياد ، أم صعب المراس ؟ ويظهر أن الحسن الصباح كان يحبذ إلى دعاته اختيار المدعوين البسطاء - على ما رأيت - فأوجب عليهم ألا يدعوا الجهال الممعنين فى الجهل ، أو المثقفين المتضلعين فى العلوم والمعارف ، لأن الأولين لا يستطيعون فهم أسرار المذهب النزارى الإسماعيلى ، والمثقفين لا يستطيعون كتم أسراره ، وعلى هذا فإن هؤلاء وأولئك ، إذا ما انضموا اليهم ، سيكونون مصدر الضرر على المذهب النزارى . وهذا يفسر لنا لماذا منع النزارية « إلقاء البذر فى الأرض السبخة ، والتكلم فى بيت فيه سراج »[1] .

والواقع أن «التفرس» يقتضى من الداعى شيئا غير قليل من الذكاء ، كما يقتضى منه أن يدرس حالة المدعو الجديد من كافة النواحى ، وأن يتجسس عليه ، حتى يعرف خبيئة نفسه ، هذا إلى أن دراسة أخلاق الغير وطباعهم يقتضى إلماما كبيرا بمبادىء علم النفس ، ومعرفة الطبائع البشرية ، مما كان يجبر الداعى على أن يكون عالما ، قادرا على الوصول إلى أعماق النفوس . ومهما يكن من شىء ، فان خطوة « التفرس » من أخطر خطوات الدعوة النزارية ، فعليها تقوم الخطوات الأخرى .

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٤ والأرض السبخة : العقول المفكرة ، أو الجاهلة . والبيت فيه السراج : الموضع فيه الفقية .

الخطوة الثانية : التأنيس :

و «التأنيس» هو بعث الأمن والطمأنينة إلى نفس المدعوين ، الذين وافقوا على دخول المذهب النزارى ، ويكون « التأنيس » بإشباع ميول المدعو ، وإعطائه كل ما يميل إليه طبعه ، فإن كان تقيا أظهر الدعاة له التقوى ، وإن كان عربيدا زينوا له العربدة ، واستصوبوا كل ما يعمل ، وأوّلوا تصرفاته تأويلا تأنس نفسه إليه .

و«التأنيس» ، كالتفرس ، يقتضى دراسة طبائع الناس ومعالجتها بكل ما يتفق معها ، وقد يؤدى القليل من الخطأ فى هذه المرحلة ، إلى النفور من الداعى والدعوة معا . ولذلك وجب على الداعى أن يبتعد عما يثير نفوس المدعوين . وقد رسم الحسن الصباح «للدعاة المأذونين ـ فى هذه الخطوة ـ أن يجعلوا مبيتهم كل ليلة عند واحد من المستجيبين ، ويجتهدوا فى استصحاب من له صوت طيب فى قراءة القرآن ، ليقرأ عندهم زمانا ، ثم يتبع ذلك بشىء من الكلام الرقيق ، وأطراف من المواعظ اللطيفة ، الآخذة بمجامع القلوب . ثم يردفون ذلك بالطعن فى السلاطين ، وعلماء الزمان ، وجهال الأمة ، ويذكرون أن الفرج منتظر ببركة أهل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وكل ذلك ليستحكم الأنس به ، ويميل القلب إلى الإصغاء إلى كلامه » [1]. يفعل الدعاة كل ذلك حتى تهدأ نفوس المدعوين ، وتركن إليهم ، فيندفعون نحو الدعاة ، يبثونهم جميع ما فى نفوسهم ، وبهذا يتهيأ السبيل أمام الدعاة ليوغلوا بالمدعوين فى خطوات الدعوة المختلفة .

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ٤

الخطوة الثالثة : التشكيك :

و«التشكيك» هو القدرة على زعزعة عقيدة المدعوين . وتعتبر هذه الخطوة الجريئة من أخطر الخطوات وأدقها شأنا على الداعى والمدعو معا ، فيتحتم فيها على الداعى أن يكون لبقا تمام اللباقة ، يعرف كيف يصل إلى قلب المدعو . فيكثر من ضرب الأمثلة التى تصل إلى سويداء القلوب ، وتوهن عقيدة المدعو الأولى ، دون أن يتشكك فى إخلاص الداعى وقدرته ، أو يتشكك فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، وانما يجعله الداعى يعتقد بأن هذا المذهب ليس إلا حركة إصلاحية ، مآل معتنقه الجنة والسعادة ، ولذلك يشرح له آى القرن بطرق تبعده عن معانيها المألوفة له ، ويشككه فى هذه المعانى ، وفى مظاهر الطبيعة ، وما إلى ذلك .

وترجع خطورة «التشكيك» على المدعو فى أنه يعتبر نقطة البداية فى تحوله عن عقيدته الأولى إلى المذهب الإسماعيلى ، والغرض الذى يقصده الداعى من خطوة «التشكيك» مزدوج الفائدة ، ولاغرو ، فانه يرمى من ورائه إلى إضعاف عقيدة المدعو من ناحية ، وإلى جذبه إلى المذهب النزارى من ناحية أخرى ، لأن المدعو حين يتشكك فى صحة ما كان يعتقده ، يلجأ إلى الداعى يستمد منه المعونة ، فيثير الداعى فيه غريزة حب الاستطلاع ، ويجعله يعتقد أن معارفه ليست شيئا مذكورا بجانب معارف الداعى[1] ، وهذه الدرجة نوع من حرب الأعصاب ، التى يستغلها المحاربون اليوم ، وكان لها أثرها الناجح فى عهد النزارية .

---

(١) الأفغانى : الرد على الدهرية (ترجمة الشيخ محمد عبده) ، ص ٤٠

ومن هنا نرى أنه من الواجب على الداعى أن يكون ذا مقدرة فى التمويه على الناس ، وان يكون على علم كبير ، لأنه يجب عليه أن يصوغ عقول المدعوين من جديد ، فيضع مكان عقائدهم السابقة عقائد جديدة ، وبدل معارفهم الأولى معارف جديدة مستساغة ، ويعتبر « التشكيك » خطوة هامة توصل المدعو إلى المذهب الإسماعيلى ، أو بالأحرى إلى التعلق بهذا المذهب ، ثم الارتباط التام به .

الخطوة الرابعة : التعليق أو الربط .

والمقصود « بالتعليق » ، كخطوة من خطوات الدعوة ، ترك الداعى المدعوّ بعد تشككه ، متأرجحا فى عقيدته ، فإن المدعو بعد تشككه الذى بثه فيه الداعى ، فى الخطوة السابقة ، أضحى متعطشا إلى إدراك كنه المذهب الإسماعيلى ، والإلمام بجميع أسراره ، ولذلك يرتمى فى أحضان الداعى ، ليستعين به فى تحقيق ذلك ، ولكن الداعى يطوى عنه جواب هذه الشكوك ، إذا هو استكشف فيها شيئا ، ولم ينفس عنه أصلا ، بل يتركه معلقا ، ومهولا للأمر عليه ومعظما » (١) .

والغرض من خطوة «التعليق» زيادة التأكد من معرفة شخصية المدعو ونفسيته . وليس هذا فقط ، بل ليأخذ الداعى عليه العهد إن رآه متعطشا ، إذ أن الداعى يصور للمدعو خطورة الموقف ، ويبين له أن هناك أسرارا اختص بمعرفتها من أحبه الله ، وأنه لا يمكنه أن يلقيها إليه جزافا ، بل لا بد للداعى من أن

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ٥

يأخذ العهد عليه حتى تظل سرا مكتوما ، فاذا ما أخذ العهد ، عليه جعله عبدا خاضعا للدعوة والدعاة .

ويرينا هذا كله إقبال الدعاة ، على الشاك وهو فى حيرته ليمنوه بالنجاة منها ، وهدايته إلى اليقين الثابت ، فاذا انقاد لهم أخذوا مواثيقهم ، ثم أوصلوه إلى مرشدهم الكامل »[١] .

وإن أخذ العهد على المدعو يضيف إلى جماعة النزارية عضوا خاضعا خضوعا أعمى ، لكنه لازال على تشككه ، وما أخذه العهد فى نظره هو ، إلا خطوة لإزالة ما اعتراه من شكوك ، والوصول إلى ما يعتقد أنه الحقيقة .

وبهذه الوسيلة ـ الربط ـ استطاع الداعى أن يضم إلى المجتمع النزارى عضوا قد طلق دينه الأول ، وعقائده السابقة ، واعتقد أن المذهب الإسماعيلى بغيته ، وكل ما يؤمل . ويمتاز المدعو فى تلك المرحلة بضعف الإرادة وقلة التسلط ، وهذه الحال التى وصل إليها تساعد الداعى على أن يخطو به إلى الخطوة التالية ، وهى التدليس [٢] .

الخطوة الخامسة : التدليس .

الحق أن المدعو قد أصبح آلة طيعة فى يد الداعى ؛ فقد ترك دينه ومذهبه ، ووثق كل الثقة فى داعيه ، واتخذ منه أبا وأخا وأستاذا ، وأمّل الخير على يديه ، فجعل يصغى إليه بكل جوارحه ، ويتلقف ما يتفوه به على أنه حقائق لا يعتريها

---

(١) الافغانى : الرد على الدهرية ، ص ٤٠ .

(٢) التدليس : الخداع ، والخيانة ، والتمويه .

شك ، غير أن الداعى ينتهز فرصة ارتماء المدعو بين يديه ، واعتماده على أمانته وصدقه ، ويلجأ إلى الكذب والتمويه ، ويدعى ادعاءات كثيرة كاذبة ، تزيد فى تعلق المدعو بالمذهب الإسماعيلى ، منها أن أكابر العلماء المسلمين السنيين ، يعرفون أسرار المذهب الإسماعيلى ، ويؤمنون بها ، ولكنهم يكتمون ذلك تقية (١) .

ويرى حجة الإسلام ـ الغزالى ـ أن « التدليس » ، هو عدم إعطاء المستجيب المعلومات دفعة واحدة ، بل يتدرج الداعى فى ذلك ، ويلجأ فى أثناء هذا التدرج إلى الكذب ، فيبدأ مثلا فى شرح ما فيه أهل البيت من ظلم حائق بهم ، ويوضح للمدعو أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر من الباطن ، كالقشر من اللباب ، ثم يمنيه بقرب ظهور دينهم وقوتهم ، إلى غير ذلك من الأمور التى تجذب المدعو إلى الداعى ومذهبه (٢) .

ويعتقد فون همر أن الغرض من التدليس ، هو أن يميز المدعو أوجه الشبه والخلاف بين المذهب النزارى والمذاهب الأخرى من ناحية ، وبينه وبين آراء العلماء والسياسيين المشهورين من ناحية أخرى ، ويرى أن هذه طريقة خطيرة ، يستخدمها النزارية للتأثير فى قلوب المستجيبين (٣) . وأياما كان ، فإن الداعى يؤكد للمدعو فى هذه المرحلة ، موافقة أكابر الدين

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٦

(٢) الغزالى : فضائح الباطنية ، أو المستظهرى ، ص ٢٤٦ .

(٣) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p.95

والدنيا لهم ، حتى يزداد ميله [١] . وبهذا وغيره يستطيع الدعاة النزارية أن يجذبوا إليهم جماعة من المتفانين فى إخلاصهم للدعوة التى استجابوا إليها ، وبذلك أيضاً نرى أن الغرض من « التدليس » لم يكن غرضا دينيا خالصا ، بل كان غرضا دينيا سياسيا .

ومن الواجب بعد ذلك على الداعى أن يعمل على تثبيت هذه المعلومات الجديدة التى ألقاها فى روع المستجيب ، حتى تكون الاستجابة أكثر إحكاما . وتتضح جهوده فى هذه السبيل ، من الخطوة التالية .

الخطوة السادسة : التأسيس :

ويقصد به تثبيت المعلومات والحقائق التى أدلى بها الداعى للمستجيب ، وتقريرها فى ذهنه ، أو هو ، كما قال الشاطبى : إيراد مقدمات يقبلها المدعو . والحق أن « التأسيس » يعتمد على خطوات كثيرة ، إذ يقتضى تفرس الداعى حالة المدعو ، والعمل على بث الطمأنينة فى قلبه ، حتى يرتاح إليه للوصول إلى الخطوة التالية « الخلع » . كما يقتضى من الداعى خلق التشكيك فى نفس المدعو من جديد ، حتى يرتمى فى أحضان دعاة المذهب ، ويعتمد عليهم فى كل أموره ، وبذلك يكون المدعو أساس قيادا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ليعرف الدعاة ، على وجه التحقيق ، نفسيات المستجيبين ، كى يستطيعوا التوغل معهم فى دراسة أسس المذهب الإسماعيلى ، دون تراجع من هؤلاء المدعوين .

كما يجب على الدعاة فى هذا الدور ، أن يتأكدوا من قوة تأثير العهود التى أخذوها على المدعوين ، ويملئوا قلوبهم بالتدليس والخداع . كل ذلك

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٤

ليس له غرض سوى تقوية إيمان المستجيب بمبادىء المذهب النزارى وشحذ همته[١] . وليس من شك فى أن المدعوين الذين يصلون إلى تلك الدرجة ، يجب أن يكونوا ممن نالوا تقدير الرؤساء ، واشتهروا كذلك بالإخلاص . وهكذا لم ينتقل الدعاة من خطوة إلى أخرى ، إلا بعد التأكد من روح جماعاتهم ، مما ساعد على عدم وجود دعاة للهزيمة بينهم ، ومما جعل المجتمع الإسماعيلى من أقصاه إلى أقصاه يدين بالولاء والطاعة لرؤسائه . وبهذا يصل المدعو إلى الخطوة السابعة (الأخيرة) . وقد أصبح إسماعيليا خالصا . وهو غاية الإسماعيلية ، التى تنتهى بخلع المدعو من المذاهب السنية وغيرها ، ودخوله المذاهب الإسماعيلية ، بل ثورته على المذاهب السنية أيضاً .

المرتبة السابعة : الخلع .

ومعنى « الخلع » إقصاء المدعوين عن خطيرة المذاهب السنية ، إن لم يكن عن حظيرة الإسلام نفسه ، بإسقاط التكاليف الشرعية عنهم ، ولذلك قال العلماء : إن « الخلع » هو الاطمئنان إلى إسقاط الأعمال الدينية ، و« الفسخ » هو إسقاط الاعتقادات جميعها [٢] .

ويكون « الخلع » و« الفسخ » باللجوء إلى التأويل غير المشروع ، ويتركز فى تلك القاعدة خلاصة المذهب الإسماعيلى ، حتى لقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن التأويل هو القاعدة السابعة من القواعد التى وضعها الحسن

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des ,Assassins, p. 98

(٢) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

الصباح فى لتنظيم طرق الدعوة[١] . والواقع أن من يصل إلى تلك المرتبة لم يعد يعبأ بتكاليف الشرائع ، ويعتقد أن لآى القرآن باطنا غير ظاهرها [٢] ، ويؤولها حسبما تصبو نفسه إليه .

وليس من شك فى أن « التأويل » قائم على أغراض سياسية حقة ؛ فإنه بالتأويل ، يستطيع هؤلاء الدعاة النزارية هدم المذاهب السنية ، ذلك الهدم الذى هو الغاية السياسية للمذهب الإسماعيلى النزارى ، وبه كذلك يخلقون مجتمعا يدين بالطاعة لرؤسائه ، ما دام هؤلاء الرؤساء هم مصدر التأويل ، الذى يحررهم من ربقة الأديان « والقول الوجيز على ما يقول الغزالى ، « إنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة ، صرفوهم عن المراد بها إلى مخاريق زخرفوها ، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ ، إبطال معانى الشرع ، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة »[٣].

على أن من يصل إلى تلك الدرجة يصبح باطنيا عالما بأسرار العقيدة الباطنية . وليس من شك فى أن فلسفة المذهب الإسماعيلى تتركز حول تلك القـــاعدة وحدها ، تلك الفلسفة ذات الشعب الثلاث : الدينية والسياسية والثقافية . ولا يتمتع بتلك الفلسفة ، إلا عـدد قليل من كبار المستجيبين الذين يثق الرئيس بهم [٤].

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins p. 96

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيده ، ج ١ ، ص ٤٩٧ .

(٣) الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ١٢ .

(٤) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p.96

وهكذا نجح الحسن الصباح فى تكوين مجتمع إسماعيلى خالص ، يمتاز بالنظام الدقيق ، بحيث يفوق فى هذا مجتمع القرامطة الإسماعيلية فى بلاد البحرين ، ذلك المجتمع الذى أوجده أبو سعيد الجنابى ، وغذاه بمبادئه ، فقد كان لنظام الحدود الدينية ، وتربية الفداوية ، وللتقسيم الروحى ، عند أتباع الحسن ، الأثر الكبير فى نجاح الدعوة النزارية ، وبقائها قوية مرهوبة الجانب .

وإن فى تسميتهم دعوتهم « الدعوة الهادية » ، وتسميتهم أنفسهم « عبيد الدعوة الهادية » ما يدل على مدى تماسك هذا النظام ، وعلى مدى نجاح الحسن وجماعته ودولته ، ويفسّر بقاء هذا كله ما يقرب من قرنين . وقد استمرت سياسة الحسن تعمل فى نفوس أشياعه وخلفائه عمل السحر ، حتى بقيت هذه الآثار إلى اليوم . وبفضل هذا النظام الدقيق ، استطاع الحسن الصراع مع السلاجقة وغيرهم من منافسى المذهب النزارى .

(هـ) أماكن الدعوة النزارية

١ — قلاع الدعوة :

لم يكد الحسن الصباح ، مؤسس الدعوة النزارية ، يدرك وهن « الدعوة الإسماعيلية القديمة » فى مصر ، حتى عمل على الجمع بين محاسن نظام الدولة الفاطمية ، فى تكوين أماكن استقرار دائمة فى عواصمها ، ومحاسن دويلة القرامطة ، فى استخدام السيف كوسيلة من وسائل الإرهاب ، والاعتماد على الاستقرار فى دور هجرة خاصة بأشياعهم . فقرر ألا يستقر بجماعته فى مدن ، كما كان الفاطميون يفعلون ، أو فى دور هجرة كما فعل القرامطة ، وإنما عمل على أن يستقر فى قلاع قوية

التحصين ، لا يستطيع أحد التغلب عليها إلا بشق الأنفس .

وكان احتلال الحسن قلعة (آلموت) سنة ٤٨٣هـ ، إيذانا بتنفيذ تلك السياسة الخطيرة ، وهى اتخاذ هذه القلاع أمكنة لوثوب الدعوة ورجالها على منافسيهم ، وقد تمكن النزارية فى عهد الحسن من الاستيلاء على عشرات القلاع فى فارس وخراسان ، وأطلقوا عليها اسم « قلاع الدعوة الهادية المهدية » . يقول بارتولد [1] : « اتجهت الدعاية الإسماعيلية فى نهاية القرن الخامس الهجرى إلى وجهة جديدة ، فاستولى الإسماعيلية على أماكن كثيرة حصينة ، فى كل أرجاء إيران » . وهكذا فإن قلاع الدعوة كانت دورا للهجرة من ناحية ، كما كان بعضها ، كآلموت ، عاصمة دينية سياسية ، من ناحية أخرى .

ولم تكن قلاع الدعوة جميعها أمكنة للوثوب ، وإنما كانت القلاع الرئيسية وحدها هى المخصصة لذلك ، أما القلاع غير الرئيسية ، فكانت موطنا لوثوب الجنود النزارية على جيرانهم ، ومستقرا للمجتمع النزارى ، الذى آلى على نفسه ألا يسكن مع السنيين فى مكان واحد . وكانت قلعة « آلموت » هى القلعة الرئيسية من بين قلاع الدعوة ، فيها يقيم الرئيس الأعلى - شيخ الجبل - وهو المشرع الأول للدعوة الجديدة ، وهو ملك النزارية وسلطانهم ، بل إمبراطورهم ، واستمر خلفاؤه السبعة [2]

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية (نشر حمزة طاهر) ، ص ٨٦ .

(٢) وهم الداعى الكبير الكيابزرجميد (٥١٨ - ٥٣٢ هـ) ، وابنه الداعى محمد الأول (٥٣٢هـ - ٥٥٧ هـ) ، ثم الإمام الحسن الثانى ، الذى يلقبه الإسماعيلية بلقب « على ذكره السلام » (٥٥٧ - ٥٦١ هـ) ، وابنه الإمام محمد الثانى (٥٦١ - ٦٠٨ هـ) ، ثم ابنه الإمام الحسن الثالث ، ويسمى « المسلم الجديد » (٦٠٨ - ٦١٨ هـ) ، وابنه الإمام علاء الدين (٦١٨ - ٦٥٣هـ) ، وأخيرا الإمام ركن الدين خورشاه (٦٥٣ - ٦٥٤هـ).

على منواله ، فاتخذوا من قلعة « آلموت » عاصمة لملك جديد ودعوة جديدة . وبعبارة أخرى ، كانت قلعة « آلموت » دار هجرة الإسماعيلية النزارية وعاصمتهم .

وهكذا وضع الحسن الصباح أسس هذه الدعوة وتعهدها خلفاؤه ، فكانت الجيوش النزارية تخرج من « آلموت » ، وينتشر منها دعاتهم ، ومنها أيضا سن الحسن الصباح سنن دعوته الجديدة ، وشرع تشريعاته الدينية ، وألف كتبه الضخمة ، فى النهوض بالمذهب النزارى . وترويج الدعوة إليه ومما تمتاز به « قلاع الدعوة » أنها تحتوى على كثير من أشخاص المستجيبين النزارية ورتبهم . ففى « آلموت » ـ عاصمة النزارية ـ ترى فيها نائب الإمام ، (٤٨٣ — ٥٥٩ هـ) ثم الإمام نفسه ، (٥٥٩ — ٦٥٤ هـ) ، وفيها الدعاة والمأذونون والفداوية وعامة المستجيبين . أما القلاع الرئيسية فى « جزر » الدعوة ، عواصم « البحـــار » ، ففيها نواب الرئيس الأكبر ، وهم كبار الدعاة ، الذين كانوا بالنسبة لرئيس الدعوة . كالحجة بالنسبة للإمام . وأما القلاع العادية ، فتخلو من الإمام ومن الحجة ومن كبير الدعاة ، ولكنها تحوى بقية الأعضاء . والعنصر الهام فى سكان تلك القلاع العامة هم المحاربون . وكثيرا ما تمد هذه القلاع العادية القلاع الرئيسية بالفداوية ، ليكونوا تحت أوامر الرؤساء . وقد استمرت قلاع الدعوة فى خراسان وقوهستان ورودبار والشام ، معقل المذهب الإسماعيلى ، حتى أزالها التتر من عالم الوجود ـ تقريبا ـ فى منتصف القرن السابع ، وفعل الظاهر بيبرس بقلاع الدعوة فى الشام ، ما فعله هولاكو فى بلاد المشرق (١) .

(١) انظر كتابنا « اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم »

٢ ـ دور الدعوة :

الحق أن قلاع الدعوة هى « دور دعوة » أيضا ، لكن أهمية هذه الدور إنما تظهر فى البلاد التى كان المذهب السنى يسود فيها ، كما تظهر أهميتها فى أنها بدعة اختص بها النزارية وحدهم ، دون باقى طوائف الإسماعيلية ، وبعبارة أخرى ، كان دعاة النزارية يعنون دائما بتكوين « نقط ارتكاز » فى بلاد السنيين ، شبيهة بدور الهجرة التى كانت تتخذ فى دور الستر الأول . بحيث تعتبر هذه الدور مأوى لأنصار المذهب النزارى ، وتروّج منها الدعوة النزارية بتطوراتها المختلفة .

وسوف نرى أن أول دار من «دور الدعوة» هذه إنما أقيمت بالقرب من مدينة أصفهان ، حاضرة السلاجقة ، أقامها رئيس الدعوة النزارية الثانى ـ ابن عطاش ـ وقد تمكن النزارية بفضل تلك الدار من جذب عشرات الألوف من الأهلين ، الأمر الذى سبب الرعب فى المدينة نفسها ، وفى ضواحيها ، ولا غرو فقد اتخذت تلك الدور ـ كالقلاع ـ أمكنة للوثوب منها على السنيين .

ولو تتبعنا نشاط الدعاة النزارية فى الأقاليم السنية المختلفة ، لوجدنا دورا كثيرة من هذا النوع ، الذى كان الصباح يعمل على ترويجه . ولم نذهب بعيدا ؟ وقد كان من أهم شروط الاتفاق بين النزارية فى الشام وبين الملك رضوان بن تتش ، (+ ٥٠٧ هـ) صاحب حلب ، أن يكون لهم بحاضرة ملكه (حلب) «دار دعوة» يلجئون إليها ، فزاد نفوذ النزارية بحلب وبلاد الشام ، تبعا لذلك . وفعل النزارية فى دمشق ـ بعد ذلك ـ ما فعلوه فى حلب نفسها .

وترجع أهمية تلك الدور ، التى بعثها الصباح ، من الناحية المذهبية

خاصة ، إلى أن النزارية يستطيعون بفضلها ، وبفضل قربهم من السنيين واحتكاكهم بهم ، التأثير فى أكبر عدد ممكن ممن يخالفونهم فى المذهب ، وضمهم إليهم ، كما أن هذه الدور كانت تقوّى عصب النزارية ، بجذب الخائفين من هذه الطائفة اليها ، وبخاصة ممن يعيشون منهم بين السنيين ، وباللجوء اليها ، والاستقرار بها . وإذن كانت هذه الدور أشبه بنواد تدرس فيها الدعوة النزارية ، كما تدرس فيها المشروعات الهدامة ، التى يرى النزارية القيام بها ضد منافسيهم وأعدائهم . وهكذا كان نشاط النزارية فى دور دعوتهم ، مكملا لنشاطهم فى قلاعهم ، المتناثرة فوق الجبال ، فى كثير من بقاع العالم الإسلامى .